سلسة العقائد
وأسرارها الروحية

تقريب الدين بين أيدي المسلمين

القضاء والقدر

تأليف
وائل محمد عبده

دار الشمائل







بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا، الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب تبيانًا للناس، ثم هو يضل من يشاء ويهدي من يشاء، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون.

وصلاة وسلامًا دائمين كاملين على رسوله صفوة خلقه الذي بعثه للناس كافة بشيرًا ونذيرًا، فبلَّغ رسالة ربه وتركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك.

وبعد... فإن الإسلام دين الله منذ أن خلق الأرض ومن عليها؛ فكل مخلوق يسلم لله تعالى وكل مخلوق منقاد لما قدر له؛ فيجب أن يؤمن بهذا كل ذي عقل وفكر، فإن الإيمان بالقضاء والقدر جزء مهم من العقيدة الإسلامية يجب أن يتعرف عليه المسلم ويعتنقه، فيجب عليه أن يؤمن بأن الله تعالى علم كل شيء كيف كان وكيف سيكون، ثم إنه تعالى أراد أن يوجد ما هو موجود الآن في العالم، ثم إنه تعالى قدر وجوده على ما هو موجود

عليه لم يتغير عما قدره ولا ما أراده ولا ما علمه، ولا يجوز أن يتغير؛ فإنه خالق كل شيء، العالِم بكل شيء، إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون.

وهذه العقيدة الإسلامية في القضاء والقدر يجب أن تكون في نفس كل مسلم؛ لا تتزلزل ولا تتغير ولا يدخلها شك؛ فإنها إن تزلزلت يعود الظلام إلى نفسه، ويدخل إلى عقله شك في كل أفعاله؛ ولا يرضى بما قسمه الله عليه؛ فيعود حزينًا مهمومًا من كل شر، فإن قدر الله له خيرًا تمردت نفسه عليه وظن أنه صنعه لنفسه فتراه يفرح به.

ولكن المسلم إذا كان مؤمنًا تمام الإيمان بالقضاء والقدر فإنه سيعلم أن كل شيء إنما هو بقضاء الله تعالى، علمه كما وقع له وأراده على ما هو عليه ثم قدر وقوعه فوقع بقدرته تعالى فهو المؤثر الوحيد في هذا الوقوع.

إن عقيدة القضاء والقدر أحد أجزاء العقيدة الإسلامية التي تجعل المؤمن مقدامًا في حياته شجاعًا في اتخاذ قراره وفعل ما عزم على فعله؛ وذلك لأنه يعلم أن الله تعالى هو الذي أنشأ في نفسه اختيار ما سيفعله، وهو الذي أعطاه القدرة على فعله.

إن العقيدة القلبية لها سلطان على الأعمال البدنية؛ فما يكون في الأعمال من صلاح أو فساد فإنما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها، و عقيدة القضاء

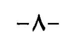
والقدر تتزعم هذه العقائد القلبية التي تؤثر في الأعمال البدنية، فإن عقيدة القضاء والقدر تعد من أصول العقائد في الديانة الإسلامية الحقة.

ويجب ألا يظن المسلم أنه بإيمانه بهذه العقيدة يلقي من عنقه المسئولية فيعمل ما يريد ويدعى أن الله تعالى قد قدره عليه؛ فإن الإيمان بأن للإنسان مسئولية عن أفعاله جانب مهم من الإيمان بعقيدة القضاء والقدر؛ فيجب أن يعلم المسلم أن الله تعالى قد قدر كل شيء في كتابه؛ ولكن العبد مسئول عن أفعاله والله يحاسبه عليها فيدخله الجنة أو النار بعدله تعالى؛ فإن الله لا يظلم مثقال ذرة.

ومن هنا كان تأليف هذا الكتاب في معتقد- القضاء والقدر- لينتفع بـه كـل مسلم في معرفة جزء مهم من عقيدته؛ لعل الله تعالى أن ينفع به مـن يقـرؤه ممـن هو في تحير فكر واضطراب نفس من عقيدة القضاء والقدر؛ فينقطع تحير فكـره وينتهي اضطراب نفسه؛ فيؤمن ويرضى ويعمل فينجو ويسعد.

والله المستعان وعليه التكلان.

* * *



تمهيد

قبل أن نتحدث عن عقيدة القضاء والقدر يجب أن نذكر عدة مسائل يتوقف عليها فهم القضاء والقدر.

وهي مسائل ظاهرة لكل أحد؛ ولكنها قد تخفى على من لم يتأمل في العالم.

ويمكن اختصار هذه الأمور في نقاط:

أولًا: ما هو الكون؟

الكون هو هذا الوجود كله من الإنسان وما يحيط به من أرض وسماء وما فيهما وما بينهما، وهو كل شيء وجد بعد أن لم يكن ويتغير يومًا بعد يوم فيصغر ويكبر ويطول ويقصر ويقل ويكثر ويفنى مهما طال من زمن وجوده؛ فهو يحتوي على عوالم كثيرة من علوية كالسموات وما فيها مما نراه ومما لا نراه والأرض وما فيها أيضًا.

فهو كون هائل عظيم لا يستطيع الإنسان أن يحيط بما فيه.

ففي سمائنا الدنيا هذه وحدها بلايين الكواكب والنجوم، وإنها لتختلف في أحجامها وأبعادها وقوانين سيرها كما أنها تختلف في محتوياتها وخصائصها.

وفي أرضنا هذه التي نعمرها ونعيش عليها عوالم لا تقل عظمة وروعة عن العوالم العلوية، ففي عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات عجائب في الخلق وعجائب في العدد وعجائب في الخصائص والطباع.

* * *

ثانيًا: كيف نشأ الكون؟

لا أحد يستطيع أن ينكر أن الكون قد وجد قبل الإنسان، فهذا شيء لا يستطيع أحد أن يجادل فيه؛ كيف وقد جاء الإنسان فوجد أرضًا يعيش عليها وشمسًا يعيش تحتها ترسل له بالضوء الذي لا يستطيع أن يعيش إلا به والحرارة التي تقوم بها الحياة، ووجد الهواء الذي يتنفسه، فقد جاء الإنسان فوجد كل شيء معدًّا له مسخرًا له.

والكون يحتوي على نظام خاص يسير به لا يتغير ولا يتبدل، وهذا النظام هو الذي جعل الكون مستمرًا إلى الآن، ولو لم يسر الكون بنظام خاص لكان هباءً منثورًا.

وإذا تم الاتفاق على أن في الكون أنظمة ثابتة يصعب أن تتغير وأن فيه أيضًا الكثير من الظواهر الخاضعة لهذا النظام فلا يستطيع أحد أن يدعي أن الكون أوجد نفسه بنفسه، لأن الشيء لا يوجِد نفسه كيف وهو غير موجود أصلًا؟

ولا يستطيع أحد أن يدعي أن الكون وجد صدفة؛ ولو وجد صدفة فإنه لا يعقل أن يكون بهذا النظام الخاص الذي رأيته؛ هذا النظام الذي لم يختل منذ ملايين السنين.

ولا يستطيع أحد أن يقول إن هناك أجسام تحركت في الفضاء وتكاثفت وكونت هذا الكون؛ فإذا كان كذلك فمن الذي أوجد هذه الأجسام وحركها وجعلها تتكاثف بحيث يخرج منها هذا الكون؟

إذن فكيف نشأ الكون؟

ومن الذي أنشأه؟..

من الذي نظم هذا الكون بحيث لا يصيبه اختلال؟..

ومن الذي حماه من الاختلال؟..

إن مسألة خلق الكون محسومة لله تعالى؛ فهو الذي أعلن نفسه خالقًا لهذا الكون، والكفار أنفسهم لم يجادلوا في ذلك، قال تعالى عن الكفار: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[1].

أما كيفية خلق الكون فلا أحد يعرف بدقة كيف نشأ الكون ولكن يكفي أن نقرأ قوله تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٦١.

(٢) سورة الكهف آية: ٥١.

القدر الذي نعرفه عن كيفية خلق الكون هو ما أخبرنا به الله تعالى؛ إذ يقول: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1].

ويقول: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ ﴾[2].

---

(١) سورة الأنبياء آية: ٣٠- ٣٣.

(٢) سورة فصلت آية: ٩-١٢.

هذا خبره تعالى عن خلق الكون، وأما عن خلق الإنسان والجان والحيوان والنبات فيقول تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾[1].

ويقول: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾[2].

ويقول: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾[3].

ويقول: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾[4].

* * *

(١) سورة الرحمن آية: ١٤-١٥.

(٢) سورة الحجر آية: ٢٦-٢٧.

(٣) سورة النور آية: ٤٥.

(٤) سورة عبس آية: ٢٤-٣٢.

ثالثًا: مظاهر التنظيم في الكون والسر في ذلك

إن هذا الكون الضخم الذي سبق الحديث عنه قد ربطت بين أجزائه كلها علوية وسفلية أنظمة من السنن الدقيقة المدهشة؛ فصار الكون كله متحدًا متناسقًا إلى غاية لم ينته إليها بعد، وإذا ما وصلها يكون قد استنفذ طاقته وانتهى، ولذلك قطعًا أجلٌ مسمًّى لابد وأن ينتهي إليه؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾[1].

١ - تنظيم الكون بخلق الأسباب فيه.

إنك إذا تأملت زهرة مثلًا ترى أن لها أوراقًا جميلة جذابة ملونة؛ فإذا سألت علماء النبات عن سبب ذلك يقولون لك: إن هذه الألوان المبهجة سببها إغراء النحل وغيره من الحشرات التي تمتص الرحيق لتسقط على الزهرة؛ وذلك حتى تأتي هذه الحشرات إلى الزهرة فتتعلق حبوب اللقاح بأرجلها وتنتقل بها من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى فيتم التلقيح.

انظر إلى هذا التقدير الرائع، والأسباب الدنيوية التي ينظمها الخالق لبقاء الأشياء.

---

(١) سورة الأنعام آية: ٢.

هذا الكون المدهش المحير تجري فيه دورة الأفلاك وسير الكواكب وهبوب الريح واختلافها وتراكم السحب وسقوط الأمطار ونبات الزرع وتوالد الإنسان والحيوان وما يتجدد من موت وحياة؛ كل هذا خاضع لسنن تحكمه فتقوده لحكم عالية.

٢- النظام العام للكون.

لقد أصبح معلومًا بالضرورة لدى العالمين بأحوال الكون أن الكون كله علويه وسفليه مربوط بنظام دقيق هو غاية في الدقة، فمن أكبر حجم فيه ككوكب الشمس مثلًا إلى أصغر شيء كنواة الذرة الكل مشدود بقوانين عجيبة ومحكوم بسنن ثابتة لا تتبدل ولا تتغير كما صرح بذلك القرآن الكريم: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴿٦٢﴾ ﴾[1].

ولو فرض أن سنة من تلك السنن التي تربط الكون قد اختلت لخرب العالم أجمع، ففي العالم العلوي مثلًا لو أن خللًا طرأ على النظام الشمسي بخروج بعض الكواكب عن مسارها واصطدامها ببعض الكواكب الأخرى لكانت نهاية العالم، ولو أن حرارة الشمس زادت نسبتها على ما

(١) سورة فاطر آية: ٤٣.

هي عليه الآن بعض الزيادة أو نقصت على ما هي عليه بعض النقص لما أمكن الحياة على الأرض للاحتراق الذي يصيبها في الحالة الأولى أو التجمد الذي يصيبها في الحالة الثانية، هذا في العالم العلوي.

وفي العالم السفلي لو أن نسبة الأكسجين وهي واحد وعشرون في المائة زادت على نسبة الهواء فكانت خمسين مثلًا لاحترق كل شيء قابل للاحتراق، كما أنها إذا نقصت عن هذه النسبة المحددة لاختنق البشر ولم تمكن الحياة.

هذا مجرد مثال سقناه للأنظمة العامة التي توجد في الكون وتربط بها الحياة.

٣- النظام الخاص للكائنات.

وأما النظام الخاص والموضوع لكل كائن في الحياة فهو نظام مدهش جدًّا، إنه يوجِد لكل كائن سننًا خاصة به في وجوده ونشأته وتطور حياته، وفي طرق معاشه واكتساب رزقه وسنن تناسله وحفظ نوعه وكيفية موته وفنائه، وأكثر هذه السنن الخاصة بالأحياء معلومة لمن تأملها وفكر فيها.

٤- سر هذا النظام في الكون.

ومن أجل هذا التنظيم الساري في كل أجزاء هذا الكون ما شك الذين أوتوا العلم في أن صانع هذا الكون قد عَلِمه قبل خلقه بجميع ما فيه، ووضع له هذا

النظام الذي يحكمه قبل وجوده ثم ربطه به؛ فهو يسير فيه لا يتخلف عنه ولا يخرج عليه، وهذا النظام هو سر استمرار الحياة الدنيا وبقائها إلى أجلها الذي تنتهي إليه، وهو بالتالي نظام القضاء والقدر الذي دعت رسل الله جميعًا إلى الإيمان به والرضا بكل مجاريه خيرها وشرها سواء.

فهذا النظام في الكون كله علويه وسفليه لم يكن إلا نتيجة قدر وعلم سبقاه، فكان كل شيء في هذا الكون على مقتضى ذلك التقدير الأزلي القديم الذي هو القضاء والقدر، والذي لا يتم إيمان عبد مؤمن إلا به.

* * *

رابعًا: منشئ القدر في الكون

١ - من الذي قدر سنن الكون؟

إننا الآن قد أجبنا عن سؤال مهم ألا وهو:

من هو القابض على زمام الإنسان في رحلة هذه الحياة؟..

وبتعبير أدق: من هو الذي قدر ما يجري في العالم؟

أي من هو هذا الذي يمسك بأنظمة الكون في قبضة عجيبة لا تُغلب؟.. لم يفلح في تغييرها أو زحزحتها علم العلماء ولا فكر المفكرين، ولا قوة الأقوياء ولا حكم أولي السلطان، ولا جبروت المتجبرين؟

من هو المقدر في حياة الإنسان؟

إن المقدر في حياة الإنسان هو ذاك الذي خلق القدر ثم أعطاه هذا الثبات وعدم التغير، وجعل له سلطة أعلى من سلطة كل قوة وعلم وفكر وتدبير.

إنه ذاك الذي نشر في الكون نظامه الذي إذا انتقل إلى العقل والذهن أصبح اسمه علمًا.

إنه ذاك الذي أبدع السنن الكونية وخلق سبيل العلم بها، وهو ذاك الذي بيده وحده مقاليد هذه الأقدار يصرفها كما يشاء عندما يشاء.

المقدر هو ذاك الذي نسق مظاهر الكون مع بعضها في نسب متكاملة متكافئة ليتم بينها التفاعل المتعاون والتلاقي المنتظم، وهو الذي جعل من الخلية الصغيرة التي لا تراها بغير المجهر نموذجًا مصغرًا جدًّا للدنيا المعقدة التي نعيش فيها بكل ما فيها من الحركة الدائبة والحياة المنتظمة والمحاور الثابتة.

٢- بيانات عن أنظمة الكون.

لقد أعلن فاطر السموات والأرض في بيانات حاسمة قاطعة أن هذه الأنظمة التي في الكون ستظل نافذة كما هي، حاكمة على الناس كلهم، حتى تتبدل الأرض غير الأرض والسموات، وينتهي هذا النظام الكوني كله.

انظر إلى ما جاء في كتابه الكريم من بيانات عن هذا النظام:

- ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

- ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ ﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء آية: ٨٥.

(٢) سورة الروم آية: ٥٤.

- ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾[1].

تأمل في جلال الربوبية كيف يبدو واضحًا في أسلوب هذا التقرير؛ انظر إلى قوله: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾؛ هل تتصور بعقلك الذكي أن بشرًا من الناس، مهما كان له من جبروت، يستطيع أن يتكلم بهذا الأسلوب، فينسب إلى ذاته التعمير والتنكيس والخلق، وهو في الحقيقة مخلوق غير خالق، معمَّر غير معمِّر، منكَّس غير منكِّس!!...

- ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ ﴾[2].

- ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴾[3].

- ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة يس آية: ٦٨.

(٢) سورة الزخرف آية: ٣٢ .

(٣) سورة المؤمنون آية: ١٨.

(٤) سورة النساء آية: ٧٨.

- ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[1] .

- ﴿ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ ﴾[2] .

- ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[3].

أرأيت هذه التقارير القاطعة في أسلوبها، التي لا تحد بزمان ولا مكان، أيمكن أن ينطق بها بشر، وإنها الإنسان نفسه جزء صغير من جزيئات الكون لا يدري ما الذي يأتي به الغد.

٣- الذي قدر كل شيء هو الله تعالى.

إن المقدر لما في الكون- يا قارئي الكريم- هو صاحب هذه التقارير التي تلوتها عليك؛ إنه ذاك الذي يقول: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ﴾، والذي يقول: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ

---

(١) سورة النساء آية: ٧٨.

(٢) سورة الحج آية: ٤.

(٣) سورة يس آية: ٣٣-٣٥.

إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، والذي يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

فإن لم يكن هو، فمن يكون في تصورك؟

هو الله الواحد أيها الإنسان.. هو الله!!.

﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾[1].

٤ – المعنى الذي نستخلصه مما سبق.

وبعد هذا..

ما هو المعنى الهام الذي نريد أن نستخلصه من كل ما ذكرناه؟

إن المعنى الهام الذي نصل إليه هو أن هذا الكون ليس إذًا مجموعة أبخرة تكاثفت فتكون منها الكون.

المعنى الهام الذي نستخلصه، هو أن الإنسان مقود في هذا الكون وليس قائدًا، محكوم وليس حاكمًا، يتحرك، ولكن بمقدار ما أعطي له من حرية، ويتصرف ولكن ضمن نطاق الحكم المقضي في شأنه..والآن فلنبدأ موضوع كتابنا..

* * *

---

(١) سورة الجاثية آية: ٦.

القضاء والقدر

١ - القضاء

أصل كلمة "القضاء" قد أتى في كتاب الله تعالى مستعملًا في عدة معان:

الأول: الحكم.

قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1]؛ يقول تعالى: إن الذين يعرضون عنك يا محمد لا يؤمنون إيمانًا صحيحًا حتى يرجعوا لك في كل شيء ويجعلوك حكمًا بينهم ثم لا يشعروا في أنفسهم بأي ضيق أو شك في حكمك وقضائك ويسلموا لهذا القضاء تسليمًا تامًّا.

الثاني: الأمر.

قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾[2] أي أمر الله تعالى عباده أن لا يعبدوا إلا إياه وحده ولا يشركوا معه أحدًا.

---

(١) سورة النساء آية: ٦٥.

(٢) سورة الإسراء آية: ٢٣.

الثالث: الإخبار والإعلام.

قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾[1] أي أخبرناهم بذلك وأعلمناهم.

الرابع: الإرادة.

قال تعالى: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] أي إذا أراد إيجاد شيء تعلقت قدرته به أي أوجده.

الخامس: الإيجاد على أحسن وجه.

أي على وجه الإبداع والإحكام والإتقان حسبما تقتضيه الحكمة، قال تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾[3]؛ أي خلقهن على وجه الإبداع والإحكام والإتقان حسبما تقتضيه الحكمة.

هذه هي المعاني التي ورد أصل كلمة "قضاء" مستعملًا فيها في كتاب الله تعالى.

* * *

(١) سورة الإسراء آية: ٤.

(٢) سورة البقرة آية: ١١٧.

(٣) سورة فصلت آية: ١٠.

٢ - القدر

أما القدر فمعانيه التي وردت ثلاثة:

الأول: العلم المحيط بالأشياء وجميع أحوالها التي تكون عليها.

الثاني: الشيء المقدَّر الصادر عن القضاء كما علم الله تعالى.

الثالث: الترتيب والحد الذي ينتهي إليه الشيء.

قال تعالى: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾[1] أي رتَّب أقواتها وحددها.

وهذه المعاني التي ذكرت للقضاء والقدر هي التي استفيدت من الاستعمالات العربية.



(١) سورة فصلت آية: ١٠.

٣- القضاء والقدر

تذكرة بنظام الكون.

لكي يسهل علينا معرفة القضاء والقدر ينبغي أن نرجع بالذاكرة إلى ذلك التمهيد الذي ذكرناه في أول كتابنا، وما سقناه فيه من حديث في خلق الكون والنظام الذي يربط به السنن التي تحكم كل أجزائه، وما علمناه من عجيب الخلق والتدبير في هذا الكون كله في الإنسان وفي الحيوان وفي النبات وفي الجمادات.

لقد أشرنا إلى أن النظام الشمسي في غاية الدقة وأن لكل كوكب من الكواكب بل لكل نجم من النجوم- وهي ملايين- مساره الذي يسير فيه ومداره الذي يدور فيه على مر هذه الحياة الطويلة، ولم يقع أن خرج كوكب عن مداره الذي يدور فيه، أو نجم عن مساره الذي يسير فيه؛ إذ لو وقع ذلك لانتهى العالم من الوجود.

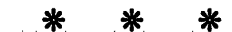
كما أشرنا إلى سنن الله تعالى في حياة الإنسان والحيوان والنبات نشوءًا وتطورًا ونماء وبقاء وفناء، وأن ذلك مربوط بسنن لا تتبدل، وبذلك انتظمت الحياة؛ فهي تسير إلى غايتها المحدودة لها، وعرفنا أن هذا هو سر القدر وتفسيره.

تعريف بالقضاء والقدر.

ومن هنا يصح لنا أن نعرِّف القضاء والقدر بأنهما: وقوع الحوادث في الكون على مقتضى علم الله تعالى الأزلي بكل ما أراد إيجاده من العوالم والخلائق وتقدير ذلك الخلق وكتابته في الذكر الذي هو اللوح المحفوظ كما هو حين يقضي بوجوده في كميته وكيفيته وصفته وزمانه ومكانه وأسبابه ومقدماته ونتائجه؛ بحيث لا يتأخر شيء من ذلك ولا يتقدم عما حُدَّ له من الزمان، ولا يتبدل في كميته بزيادة أو نقصان، ولا يتغير في هيئة أو صفة بحال من الأحوال، وذلك لأسباب:

أولًا: عظم علم الله تعالى؛ فإنه تعالى علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وكذا لظيم قدرته عز وجل والتي لا يحدها شيء ولا يعجزها آخر، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وثانيًا: إيجاده تعالى قانونًا كليًّا يربط تعالى الوجود كله به، وهذا القانون يحكم كل أجزاء الكون علويه وسفليه على حد سواء.



معنى الإيمان بالقضاء والقدر وحكمه

الإيمان بأن القدر خيره وشره من الله تعالى هو الركن السادس من أركان الإيمان فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

ومعنى الإيمان بالقضاء والقدر اعتقاد أن كل شيء في هذا الكون له سبب أثر فيه بالإيجاد أي جعله موجودًا كما أنه يؤثر فيه دائمًا بإمداده بهذا الوجود فلو انقطع عنه هذا الإمداد كان هباءً منثورًا، وهو كما أثر فيه بالإيجاد والإمداد به يؤثر في حركته وسكونه، ولكن هذا المؤثر ليس شيئًا مما اعتدنا أن نراه يؤثر بل هو الله تعالى خالق كل شيء فهو خلق الشيء وخلق ما نراه يؤثر فيه وخلق التأثير، وهذا موضوع يجب أن تفهمه جيدًا فسوف أمثل لك بأمثلة.

---

(١) أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ليس هناك مؤثر غير الله تعالى

١- الطعام والإشباع.

فليس الطعام مشبعًا بنفسه بل الله تعالى خلق الطعام وخلق الإنسان وخلق إشباع الإنسان، وجعل هذا الإشباع يحدث للإنسان عند أكل الطعام فليس الطعام هو الذي يشبع الإنسان بل يحدث الإشباع من الله تعالى عند أكل الطعام، وعلى هذا كل أثر لشيء في الكون ليس هذا الشيء هو المؤثر الحقيقي فيه بل الله تعالى هو الذي قدر هذا وجعل حدوث هذا الأثر عند وجود هذا الشيء.

٢- النار والإحراق.

ولنمثل بمثال آخر:

إذا قربت يدك من النار فإن يدك تحرق.

هذا شيء يراه كل مبصر ويشعر به كل مخلوق حي.

ولكن هل النار هي التي تسبب الإحراق بنفسها؟

يجب أن تؤمن بأن الله تعالى هو المقدر لكل شيء الخالق لكل شيء، فما يحدث هو ما أخبرك به:

الله تعالى خلق النار... وهذا شيء يعلمه كل أحد.

والله تعالى خلق يدك... وهذا تعلمه أنت وكل مؤمن بوجود الله تعالى.

ثم إن الله تعالى خلق شيئًا آخر أنت تشعر به...

إنه الإحراق...

ثم إنه تعالى جعل وجود هذا الإحراق عندما تمس يدك النار.

فمس يدك للنار مجرد سبب عادي خلق الله تعالى الإحراق عنده.

لذلك فالعلماء المسلمون يقولون: خلق الله تعالى الإحراق عند مماسة النار، وليست النار محرق بطبعها وليست علة في الإحراق أي ليست سببًا حقيقيًا في الإحراق بحيث لا يتخلف الإحراق أبدًا عنها.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾(1)، وأنت تعلم أن النار شيء ويدك شيء والإحراق شيء فإن الأشياء تنقسم إلى ذات (جسم) مثل النار ويدك، وصفة مثل كون لون يدك أبيض أو أسمر، وفعل مثل حركة المشي والنوم والإحراق؛ فكما خلق الله تعالى حركة المشي للإنسان وجعلها تحدث للإنسان عند تحرك أقدامه كذلك خلق الإحراق وجعله عند مماسة أي شيء للنار.

---

(1) سورة الأنعام آية: ١٠٢.

هذا هو معنى أن تؤمن بأن كل شيء يحدث بقضاء الله وقدره وأن الله تعالى هو المؤثر الأول في كل شيء وليس هناك أثر لشيء.

فإذا قلت: إذًا ما الذي نراه من آثار لكل شيء في الكون فما من شيء إلا وله تأثير في شيء آخر.

أقول لك: إن الله تعالى جعل الآثار (مثل الإحراق) تحدث عند وجود أشياء معينة (مثل النار) فيرى الإنسان كأن هذه الأشياء السبب في هذه الآثار فتعوَّد الإنسان على أن كل شيء له سبب.

ونحن نقول: إن هذا حق؛ إن كل أثر (مثل الإحراق) له سبب (مثل النار)، ولكن يجب أن تؤمن بأن الله تعالى خالق الشيء وهو خالق الأثر، ولكنه تعالى جعل هذا الأثر يحدث عند وجود هذا الشيء لذلك يسميه العلماء "سبب عادي" أي تعوَّد الإنسان على ربط الأثر (مثل الإحراق) بوجود الشيء (مثل النار)، وانظر إلى كلمة "عادي" تعلم المقصود.

وهذا السبب العادي دليل كونه سببًا تعوُّد الناس على أنه سبب وليس سببًا حقيقيًّا أننا نراه قد يتخلف (أي لا يحدث مع وجود كل شروطه)!

فإن النار قد توجد وتكون مماسة للجسم..

ولكنها لا تحرق..

أضرب لك مثلًا لذلك..

إنه سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

فقد كان جسده مماسًّا للنار ولكنه لم يحرق..

قد تقول: إن الله تعالى هو الذي حماه من الإحراق.

أقول لك: لا..

أنت لا تعلم السر في ذلك..

إن السر في ذلك أن الله تعالى كما خلق النار وخلق جسد سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كان يمكن أن يخلق الإحراق ولكنه لم يخلقه فصارت النار شيئًا لا أثر له- كما هي حقيقة كل شيء فإنه لا أثر لأي شيء في أي شيء- وهكذا سلم سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام من الإحراق.

٣- الدواء والشفاء.

ولأمثل لك بمثل بعيد عن النار..

إنك تأخذ دواء يصفه لك الطبيب فتشفى مما بك من مرض.

هنا ثلاثة أشياء: أنت، والطبيب، والدواء.

وفعل يهمنا: وهو شفاؤك.

اسأل الطبيب: هل أنت من يسبب لي الشفاء؟

يقول لك: بالطبع لا.

فلننظر الآن إلى الدواء..

إذا ظننت أن أخذك الدواء هو الذي يسبب لك الشفاء بحيث تؤمن أيضًا أنك إذا لم تأخذه فإنك لن تشفى أبدًا فإنك لست مؤمنًا بالقضاء والقدر وبأن الله تعالى المؤثر في كل شيء.

إنك يجب أن تؤمن أن كل شيء بقضاء الله وقدره وتعلم أنه لو قدر لك الشفاء ستشفى بلا أخذ للدواء ولو قدر الله لك عدم الشفاء لن تشفى ولو أخذت جميع الأدوية التي تشفى من هذا المرض.

فإن قلت: هل معنى هذا ألا أتبع الأسباب العادية فلا آخذ الدواء؟

أقول لك: لا..

إن الله خلق هذه الأسباب (مثل الدواء) وجعل عندها آثارًا تحدث (مثل الشفاء) وربطها بها فلا تحدث هذه الآثار إلا عند وجود هذه الأشياء (الدواء) عادة؛ ثم إنه أمرنا أن نأخذ بهذه الأسباب، فنحن نعمل بما أمرنا به.

٤- الرزق.

وأصل الآن إلى مثال أحب أن أضربه لك؛ ذلك لأنك إذا علمته وآمنت به ستصير سعيدًا إلى أن يتوفاك الله وهو راض عنك.

إنه الرزق..

أنت تعلم أنك تعمل حتى تأخذ أجرك فتنفقه على نفسك وعلى عيالك..

والآن أبسط لك الأمر كما بسطت لك أمر الدواء والشفاء.

إن الله خلقك، وخلق لك عملًا تقوم به، ثم إنه ربط بين عملك وما يأتيك من رزق؛ فإن الرزق يأتيك وافرًا إذا عملت كثيرًا، ويأتيك قليلًا إذا عملت قليلًا، فهو الذي خلق لك العمل وخلق لك الرزق ولا شيء من العمل أو الرزق يحدث إلا بأمره وقدره سبحانه وتعالى.

فقد تعمل ولا يأتيك رزق، وقد لا تعمل ويأتيك الرزق، ولكن هل يعني هذا ألا تعمل؟

لا، إن الله كما ربط بين الشفاء والدواء وجعل الدواء سببًا في الشفاء كذلك جعل العمل سببًا في الرزق بحيث إنك عادة إذا لم تعمل لم يرزقك.

إذا علمت وآمنت بما قلت لك علمت أن الله تعالى هو المقدر للرزق أولًا وآخرًا وأنه من يوفقك للحصول على عملك وهو من يوفقك في عملك وهو من يوفقك في أخذ رزقك وهو من يوفقك في الاستمتاع بهذا الرزق، ولولاه تعالى لما كان عمل ولا رزق ولا استمتاع.

هذه كلها أسباب أحدثها الله تعالى عند وجود مسبباتها وسأذكر لك فيما بعد سبب خلق الله هذه الأسباب وربط الأشياء بها..

يجب أن تؤمن بهذا لتعيش في هناء وصفاء نفس وراحة بال..

يجب أن تعمل كما أمرك الله تعالى ساعيًا إلى الرزق؛ فإن وفقك الله في العمل فمن قدره تعالى، فإن رزقك بعملك فمن فضله تعالى، وإن كان غير هذا فمنه تعالى هو الذي يعلم ويقدر كل شيء ولا يد لك في شيء وإنما أنت عبد تفعل ما يأمرك به مولاك تعالى وهو يقدر لك حياتك وأنت بها راض بما يحدث من خير وغيره.

لا تقل: إني أعمل وأسعى ولكن لا يرزقني الله..

إنما الله تعالى رزقك أن جعلك تعمل وتسعى، وكل ما تعمله يكون لك خيرًا في الآخرة إذا كنت ملتزمًا فيه بشرع الله تعالى، فإن قدر لك رزقًا وافرًا في الدنيا فمن فضله تعالى، وإن لم يقدر لك فإنه وعدك أنك تجازى بما عملته خيرًا في الآخرة.

فيا أخي المسلم، لا تعترض على ما قدره الله تعالى لك، وآمن بقضائه وقدره وارض بهما، فإن وفقك للعمل والسعي فقد جعلك تفعل ما أمرك بفعله، وهو يرزقك إن شاء.

وانظر إلى نفسك وعملك فإن كان على وفق ما أمرك به تعالى فاشكره أن وفقك لهذا وإن لم يكن فلا تلومن إلا نفسك واسع إلى أن يكون على وفق ما أمرك الله تعالى به، فإن فعلت فهذا ما أمرك به وهذا ما خلقك لأجله وادعوه أن يرزقك حتى تتم ما خلقت لأجله، وانتظر رزقه فإنه آت لا محالة.

وبذلك تعلم أن الله تعالى قدَّر الخير والشر من طاعة وعصيان ومحبوب ومكروه قبل الخلق، وأنه خلق أفعال الناس جميعها، بل خلق كل شيء من ذات (جسم) أو صفة أو فعل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1]، وقوله: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[2]؛ فالأشياء كلها واقعة بإرادته وتقديره وعلمه وقدرته؛ قال الإمام أحمد: من أنكر القدر أنكر القدرة.

فمعنى الرضا بالقضاء والقدر هو أن لا تعترض على الحكم ولا تتسخطه ولو أحسست بالألم والمكاره.



وتلخيص ما سبق أن المقصود من الإيمان بالقدر: رد الأمور كلها إلى الله تعالى، كما وقع في الحديث الصحيح: «... **اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ**...»[3] وقال الله تعالى: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾[4].

---

(1) سورة الصافات آية: ٩٦.

(2) سورة القمر آية: ٤٩.

(٣) أخرجه أحمد في المسند والحاكم في المستدرك عن عبدالله بن مسعود به.

(٤) سورة هود آية: ٥٦.

وجوب الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر جزء أساسي من عقيدة المسلمين والمسلم لا يكون مؤمنًا حقًّا كامل الإيمان إلا إذا صدق بالقضاء والقدر أي بأن الله تعالى علم كل شيء أزلًا وأراده وقضى به قبل وجوده ثم أوجده على مقتضى هذا العلم والإرادة سواء أكان خيرًا أم شرًّا.

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[1].

يقول تعالى: اعلموا أنه ما حدث لكم من شيء تحزنون بسببه كالمرض أو الزلازل أو نحو ذلك إلا وهذه المصيبة مكتوبة في اللوح المحفوظ عند الله تعالى، وهذه الكتابة من قبل أن تخلقوا وتقدير ذلك وفعله يسير على الله تعالى.

واعلم أن مقامات اليقين تسعة، وهي: التوبة والزهد والصبر والشكر والخوف والرضا والرجاء والتوكل والمحبة، ولا يصح كل واحدة من هذه المقامات إلا بالإيمان بالقضاء والقدر وإسقاط التدبير وعدم شغل النفس بهمِّ المستقبل؛ وذلك لأن التائب كما يجب عليه أن يتوب من ذنبه كذلك

(١) سورة الحديد آية: ٢٢.

يجب عليه أن يتوب من التدبير مع ربه لأن التدبير والاختيار من كبائر القلوب والأسرار فيجب عليه أن يؤمن بالقضاء خيره وشره ويرجع كل شيء إلى قدر الله تعالى ويؤمن بأن الله تعالى هو المريد لما يحدث له من خير أو شر فيرضى بقضائه لأن الإنسان عبد لله تعالى والله مولاه ولا يعترض العبد على سيده في شيء من الأشياء.



مما يبعد عنك السعادة في الحياة الدنيا ويجعلك تقصر في أعمال الآخرة ويبعدك عن الباري تعالى همُّك بما يخبئه القدر لك وتفكيرك في المستقبل دائمًا وحمل هم الرزق والتفكير فيه بصورة تجعلك تبعد عن التفكير في الله تعالى وأداء ما عليك من عبادة، والآن أنا أذكر لك أمور تحملك على إسقاط هذا الهم عنك..

وهذه الأمور هي:

أولًا: علمك بسابق تدبير الله تعالى فيك.

وذلك أن تعلم أن الله كان لك قبل أن تكون لنفسك فكما كان لك مهيئًا لرزقك قبل أن تكون ولا شيء من تفكيرك معه كذلك هو سبحانه وتعالى مهيئ لرزقك بعد وجودك فكن له كما كنت له مستسلمًا يكن لك كما كان لك هاديًا ورازقًا.

ثانيًا: أن تعلم أن في حمل هم المستقبل جهل منك.

فإن المؤمن قد علم أنه إذا ترك هم المستقبل مع الله كان الله له مرشدًا وهاديًا ومقدرًا للخير في الدنيا والآخرة أما إذا حمل همَّ الرزق والمستقبل وبعد عن طاعة الله تعالى فهو سيء الفهم لأن الله كفل له الرزق وطلب منه العبادة.

ثالثًا: علمك بأن القدر لا يجري على حسب تدبيرك.

بل أكثر ما يكون ما لا تدبر وأقل ما يكون ما أنت له مدبر، وإذا كان التدبير منك والقدر يجري على خلاف ما تدبر فما فائدة تدبير لا تنصره الأقدار وإنما ينبغي أن يكون التدبير لمن بيده أزمة المقادير.

رابعًا: علمك بأن الله تعالى هو المتولي تدبير مملكته.

فكما سلمت له تدبيره في عرشه وكرسيه وسمواته وأرضه فسلم لـه تـدبيره في وجودك إلى هذه العوالم.

خامسًا: علمك بأنك ملك لله تعالى.

وليس لك تدبير ما هو لغيرك فما ليس لك ملكه ليس لك تدبيره وإذا كنـت أيها العبد لا تنازع فيما تملك ولا ملك لك إلا بتمليكه إياك وليس لك ملـك حقيقي وإنما هي نسبة شرعية أوجبت الملك لك من غير شيء قائم بوصفك تستوجب به أن تكون مالكًا فأن لا تنازع الله فيما يملكه أولى.

سادسًا: علمك بأنك في ضيافة الله.

لأن الدنيا دار الله وأنت نازل فيها عليه ومن حق الـضيف أن لا يحمـل همًّـا وهو جالس في بيت رب المنزل.

سابعًا: نظر العبد إلى قيومية الله تعالى في كل شيء.

فهو سبحانه قيوم الدنيا والآخرة قيوم الدنيا بالرزق والعطاء والآخرة بالأجر والجزاء؛ فإذا علم العبد قيوميته تعالى به وقيامه عليه ألقى قياده إليه وانطرح بالاستسلام بين يديه فألقى نفسه بين يدي ربه مسلمًا ناظرًا لما يرد عليه من الله حكمًا.

ثامنًا: اشتغال العبد بوظائف العبودية.

فإذا توجهت همة العبد إلى رعاية العبودية لله تعالى شغله ذلك عن التدبير لنفسه والاهتمام لها.

تاسعًا: أنك عبد مربوب.

وحق العبد أن لا يحمل همًّا مع سيده مع اتصافه بالإفضال وعدم الإهمال فإن روح مقام العبودية الثقة بالله والاستسلام إلى الله تعالى، وكل واحد منهما يناقض التدبير مع الله تعالى والاختيار مع الله تعالى بل على العبد أن يقوم بخدمة سيده والسيد يقوم له بمئونته وعلى العبد القيام بالخدمة والسيد يقوم له بوجود القسمة، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ

﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾[1]، أي قـم بخدمتنا ونحن نقوم لك بإيصال قسمتنا.

عاشرًا: عدم علمك عواقب الأمور.

فربما دبرت أمرًا ظننت أنه لك فكان عليك، وربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد والشدائد من وجوه الفوائد، والأضرار من وجوه المسرات والمسرات من وجوه الأضرار، وربما انتفعت على أيدي الأعداء وأصابك الضرر على أيدي الأحباب، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن لعاقل أن يدبر مع الله ولا يدري المسرات فيأتيها ولا المضار فيتقيها..



---

(١) سورة طه آية: ١٣٢.

نبذة من آيات القدر وأحاديثه

وهنا نورد نبذة مجموعة من آيات وأحاديث تزيد المؤمنين بالقدر إيمانًا وتدل على عظمة مشيئة الله سلطانًا:

أولًا: من القرآن الكريم

أ- كل شيء يرجع إلى قدر الله تعالى وهو سبحانه الفاعل الحقيقي:

١- قال تعالى في رجوع كل شيء إلى قدره الأزلي: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾[1].

٢- وقال في قضاء أمره تعالى: ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾[2].

---

(١) سورة الأنفال آية: ٤٤.

(٢) سورة الأنفال آية: ٤٢.

فيعلمنا سبحانه أن كل شيء يرجع إلى قدره الـذي قـدره في الأزل، وأنـه يقضي هذا القضاء في كل وقت في كل فعل يحدث في الكون.

ويعلمنا أيضًا أنه تعالى يقدر أسبابًا خاصة شرعها في الكون ليقضي أمـره الذي قدره على وفق نظام يعتاده الناس؛ فهو سبحانه يقـول في الآيـة الأولى إنه تعالى قلل كل من الطائفتين المتحاربتين مـن مـؤمنين وكـافرين في أعـين بعضهم فالمؤمنون رأوا الكافرين عددًا قليلًا والكافرون رأوا المؤمنين عـددًا قليلًا فكان هذا سببًا في أن تحاربوا؛ فالله تعالى هو الـذي أراهـم هـذا فكـان سببًا قدره ليقضي ما قضاه في الأزل.

٣- وقـال تعـالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[1].

ولا يجوز أن يظن مثلًا أن الله رمى ما رماه رسوله ولم يـرم مـا رمـاه أعـداؤه تجاهه، ولا محل لأن يفـرض أن الله يتـدخل في بعـض المحاربـات أو في بعـض الشئون دون الأخرى؛ بل الله هو رامي ما رماه حبيبه ليصيب به المرمى ورامـي ما رماه أعداء حبيبه لئلا يصيب به؛ فهو يرمي ما هو مطلوب الإصابة ليـصيب ويرمي ما هو مطلوب عدمها لـئلا يـصيب؛ إذ لـو رمـاه صـاحبه لاحتمـل أن

---

(١) سورة الأنفال آية: ١٧.

يصيب كرمية من غير رامٍ[1]، وجملة القول أنه يتدخل في فعل أحد ليتمه كما يتدخل في فعل آخر ليحبطه، وكل ما حصل وما لم يحصل وما حسن حصوله وما لم يحسن فهو منه؛ ألم نؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى؟

ب- في أن ما نختاره هو ما يشاء الله لنا أن نختاره:

١- قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[2].

٢- وقال: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ ﴾[3].

انظر إلى قوله تعالى: "وما تشاءون إلا أن يشاء الله" في الموضعين تعلم أن الله تعالى هو الذي يجعلك تختار ما اختاره لك؛ فقد نفى سبحانه أي مشيئة يشاؤها العباد غير متوقفة على مشيئة الله.

---

(١) إلا أنه ذكر الأول من القسمين لشرفه وخطورته وترك الآخر.

(٢) سورة التكوير آية: ٢٧ – ٢٩.

(٣) سورة الإنسان آية: ٢٩، ٣٠.

جـ- في أن الله تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء:

١ - انظـر إلى قـول الله تعـالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

٢ - وقال: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾[2].

إن الله تعالى قد قصر الهدى على من يشاء الله هدايتهم والـضلال عـلى من يشاء الله ضلالهم فهو سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

٣- وانظر إلى قوله أيضًا: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾[3].

٤ - وقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[4].

إذا نظرت إلى ما سبق من آيات تعلم أن الله تعالى هو الذي يجعل الإنسان يضل أو يهتدي ولم يضل من ضل على خلاف مراد الله تعالى في الكون تعالى الله عن أن يكون في الكون شيء على خلاف ما أراده، بل الله تعالى هو الـذي قدر له ذلك وخلقه على وفـق هـذا التقـدير وإن لم يـرض الله تعـالى منـه أن

---

(١) سورة النحل آية: ٩٣.

(٢) سورة الأنعام آية: ٣٩.

(٣) سورة الإسراء آية: ١٦.

(٤) سورة فاطر آية: ٨.

يضل، والضلال منسوب إلى العبد لأنه هو الذي ضل وهو محاسب على ذلك لأنه هو الذي فعله وستعلم ذلك عند الحديث عن أفعال العباد.

٥- قال العلامة الآلوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾(١):

"أخرج ابن أبي حاتم أنه قال الله تعالى لموسى: إن قومك عبدوا العجل عندما غبت عنهم.

فقال موسى: الذي صنع لهم العجل هو السامري؛ ولكن من نفخ فيه الروح؟

فقال الله: أنا.

فقال موسى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾".

٦- وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾(٢)، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٣)؛ لأن للهداية ثلاث مراتب:

الأولى: الهداية العامة، وهي هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها، وإلى هذه المرتبة الإشارة بقوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝

---

(١) سورة الأعراف آية: ١٥٥.

(٢) سورة القصص آية: ٥٦.

(٣) سورة الشورى آية: ٥٢.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾[1]، وقوله: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ ﴾[2].

والثانية: مرتبة البيان والدلالة والتعليم والدعوة والإرشاد، وهي أخص من المرتبة الأولى وإن عمت المكلفين؛ وهذه المرتبة لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق وإن كان شرطًا فيه أو جزء سبب؛ ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[3]، وقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾[4].

والمرتبة الثالثة: هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة لفعل الخير، وهذه أخص المراتب وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾[5]، وقوله: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾[6] وأمثاله، وما عدا المرتبة الثانية خاص بالله تعالى.

---

(١) سورة الأعلى آية: ٣: ١.

(٢) سورة طه آية: ٥٠.

(٣) سورة فصلت آية: ١٧.

(٤) سورة الشورى آية: ٥٢.

(٥) سورة الأعراف آية: ١٧٨.

(٦) سورة الزمر آية: ٣٧.

فالحق ما قاله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[1].

* * *

قد يقال: إن في كتاب الله آيات تدل على كون هداية الله وإضلاله لعباده مبنيين على أفعال للعباد سابقة استحقوا بها هذه الهداية أو الإضلال مثل قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾[2].

﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[3].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾[4].

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[5].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾[6].

---

(١) سورة الأنعام آية: ١٢٥.

(٢) سورة محمد آية: ١٧.

(٣) سورة المائدة آية: ١٦.

(٤) سورة المنافقون آية: ٣.

(٥) سورة غافر آية: ٧٤.

(٦) سورة الزمر آية: ٣.

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾[2].

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾[3].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾[4].

﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[5].

﴿ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾[6].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾[7].

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[8].

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾[9].

---

(١) سورة إبراهيم آية: ٢٧.

(٢)سورة النساء آية: ١٥٥ .

(٣) سورة التغابن آية: ١١.

(٤) سورة النحل آية: ١٠٤.

(٥) سورة المطففين آية: ١٤.

(٦) سورة آل عمران آية: ١٥٥.

(٧) سورة القصص آية: ٥٠.

(٨) سورة العنكبوت آية: ٦٩.

(٩) سورة البقرة آية: ١٠.

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[1].

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾[2].

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[3].

﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[4].

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[5].

والجواب أن بعض الآيات وإن احتوت أسباب هداية الله وإضلاله الناشئة من عند عباده لكن الآيات التي سبق ذكرها عند ذكر الأدلة على أن الهداية والإضلال من الله وليس للعبد دخل فيها ليس بها أسباب مذكورة

(١) سورة الصف آية: ٥.

(٢) [سورة الحجر آية: ١٢.

(٣) سورة التوبة آية: ٧٧.

(٤) سورة التوبة آية: ٨٣.

(٥) سورة الأعراف آية: ١٤٦.

وهي آيات كثيرة جدًّا، أما هذه الآيات التي ذكر فيها السبب فهي آيات قليلة، لذلك فالآيات الأولى هي الأساس وهذه تحمل عليها أي تفسر الآيات المقيدة بذكر السبب بواسطة الآيات التي لا ذكر للسبب فيها، فتكون الهداية والإضلال من الله تعالى أولًا؛ خاصة وأن الهدى والضلال اللذين توقفا على مشيئة الله في قوله تعالى: "يهدي من يشاء ويضل من يشاء" لا يصح أن يتوقفا على أسباب غير مشيئة الله تعالى ولا يمكن تأويلهما فإن قوله متضح جدًّا لا يقبل أي تأويل، ويكون ذكر الأسباب من فعل العبد في الآيات التي ذكرتها مجاز لا حقيقة.

د- لو شاء الله تعالى ما أشرك المشركون به ولا غوى الغاوون.

١- قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1].

٢- وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام آية: ١٠٧.

(٢) سورة الأنعام آية: ١٣٧.

تعلم بهذا أن المشرك أراد الله له في قدره أن يشرك، ولذلك وقع منه الإشراك وهو يحاسب على إشراكه هذا لأنه وقع منه فهو الذي اكتسبه بيده وقد أمره الله تعالى ألا يشرك، والله يحاسبنا على ما نكسب بأيدينا.

٣- وقال فيمن غوى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

٤- وقال: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[2].

٥- وقال سبحانه بلسان نوح عليه السلام: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة السجدة آية: ١٣.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٧٩.

(٣) سورة هود آية: ٣٤.

هـ- الله تعالى هو من ألهم النفس الفجور والتقوى، وكيفية ذلك.

١ - قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾[1].

الإلهام: الإلقاء في القلب لا مجرد البيان والتعليم؛ إذ لا يقال لمن بيَّن لغيره شيئًا وعلمه أنه ألهمه ذلك بل الصواب ما قاله العلماء المحققون: "جعل فيها فجورها وتقواها".

٢- وقال في التفرقة بين من جعله الله مؤمنًا ومن جعله كافرًا: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ ﴾[2].

٣- وقال في كيفية جعل الكافر كافرًا: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ ﴾[3].

٤- وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾[4].

---

(١) سورة الشمس آية: ٧-١٠.

(٢) سورة الأنعام آية: ١٢٢.

(٣) سورة الأنعام آية: ٢٥.

(٤) سورة يس آية: ٨ : ١٠.

٥- وقال: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾[1].

٦- وقال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾[2].

٧- وقال في جعل المؤمن مؤمنًا: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ ﴾[3].

٨- وقال في كيفية ذلك: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ ﴾[4].

٩- وأخيرًا يقول تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة آية: ٧.

(٢) سورة الجاثية آية: ٢٣..

(٣) سورة الحجرات آية: ١٧.

(٤) سورة الحجرات آية: ٧.

(٥) سورة الأنفال آية: ٢٤.

فالحيلولة بين المرء وقلبه والقلب وفقهه، والتغشية على الأسماع والأبصار والختم على القلوب، وتحبيب الإيمان إلى المؤمنين وتكريه الكفر والفسوق والعصيان وتزيين سوء الأعمال لعامليها، وما سبق من كلام في تقليل الفئتين المتقاتلتين كلًّا منهما في أعين الأخرى للتشجيع على المحاربة وسوقهما إلى التلاقي بحيث لو تواعدتا لاختلفتا في الميعاد ولم تتصادفا كتصادفهما هذا، والقول بأنكم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وبأنك ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، ماذا يبين لنا كل هذا بكل صراحة؟

يبين لنا أن العباد مسوقون في أفعالهم وهم بيد مدبر الكائنات.

و- من أراد الله أن يضله لن يستطيع أحد أن يهديه:

١- قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾[1].

٢- وقال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾[2].

(١) سورة المائدة آية: ٤١.

(٢) سورة الزمر آية: ١٩.

٣- وقـــال: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾-وجواب لو محذوف أي لا يؤمن من لا يؤمن- ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[1].

٤- وقال تعـــالى معزيًا لرسوله الكريم صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[2].

٥- وقال: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[3]، نلفت النظر إلى مختتم الآيتين الأخيرتين أعني قولـه تعالى: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾؛ ففيهما تجهيل لمن لم ير الأمر كله من عند الله.

---

(١) سورة الرعد آية: ٣١.

(٢) سورة الأنعام آية: ٣٥.

(٣) سورة الأنعام آية: ١٠٩: ١١١.

ثانيًا: من الأحاديث النبوية الشريفة

١ - قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ ثُمَّ أَخَذَ الخلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الجنَّةِ وَلَا أُبَالِي وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي**» فقال قائل: فلماذا العمل؟! قال: «**عَلَى مُوَافَقَةِ القَدَرِ**»[1].

وهذا الحديث أبلغ كلمة في حل مسألة القدر وجمعه مع العمل.

٢- وعن عمران بن حصين قال: قيل: يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ فقال: «**نَعَمْ**»، قيل: ففيم يعمل العاملون؟! قال: «**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[2]، وفي بعض الروايات: «**كُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا خُلِقَ لَهُ أَوْ لما يُسِّرَ لَهُ**»[3].

٣- وعن عمران بن حصين أن رجلًا من مزينة أو جهينة أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون شيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر سابق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم؟ قال: «**بَلْ شَيءٌ قُضِيَ عَلَيهِمْ وَمَضَى**» قال: ففيم العمل؟ قال: «**مَنْ خَلَقَهُ اللهُ لِإِحْدَى المَنْزِلَتَيْنِ اسْتَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِهَا وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا**

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند عن عبدالرحمن بن قتادة.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾»[1]؛ فقراءة هذه الآية عقب إخباره بتقدم القضاء والقدر السابق يدل على أن المراد بالإلهام استعمالها فيما سبق لها لا مجرد تعريفها؛ فإن التعريف والبيان لا يستلزم وقوع ما سبق به القضاء والقدر.

٤- وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: احتج آدم وموسى؛ فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن أخلق بأربعين سنة؟! فحج آدم موسى.

٥- وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنكُم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدخُلُ النَّارَ وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ».

٦- سئل عمر بن الخطاب عن هذه الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[2] فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَـؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الـجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ: خَلَقْتُ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٧٢.

هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُوْنَ»، فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ فقال: «إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ العَبْدَ لِلجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجنَّةِ فَيُدْخِلُهُ بِهِ الجنَّةَ وَإِذَا خَلَقَ العَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدخِلَهُ النَّارَ»(١).

فأحاديث القدر متواترة المعنى وأكثرها يتضمن ذكر العمل؛ فللعمل أيضًا نصيب من القدر فإن كان المقدر عمله بعمل أهل الجنة يعمل به؛ وإن كان المقدر عمله بعمل أهل النار يعمل به؛ يدل عليه التعبير في الحديث السابق بقوله: "اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ كَذَا" و"اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ كَذَا"؛ ففي هذا الحديث قطع لشبهتين:

إحداهما: شبهة إغناء القدر عن العمل وحمل الناس على الكسل؛ فالحديث يدلنا على أن القدر يدور مع العمل.

والثانية: شبهة أن القدر من الله والعمل منا؛ فالتعبير بالاستعمال المسند إلى الله تعالى يرينا أن عملنا أيضًا من الله ونحن مسوقون به ومهيئون إليه للقدر السابق.

٧- وفي حديث هشام بن حكيم بن حزام أن رجلًا قال: يا رسول الله أنبتدئ الأعمال أم قد مضى القضاء؟ فقال: «إِنَّ اللهَ لَمَّا أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ أَشْهَدَهُم عَلَى أَنْفُسِهِم ثُمَّ أَفَاضَ بِهِمْ في كَفَّيهِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ.

وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ فَأَهْلُ الجنَّةِ مَيْسُورُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الجنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ مَيْسُورُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»[1].

٨- وفي الصحيح أن رجلًا سأل النبي ﷺ أن يدله على عمل يدخل به الجنة، فقال: «**إِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيهِ**»[2].

٩- وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال: كنا في جنازة في بقيع الغَرْقَد، فأتانا رسول الله ﷺ ومعه مِخْصَرَة (عصا صغيرة يُستند عليها) فنكس (أي مال برأسه) فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «**مَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الجنَّةِ وَالنَّارِ وإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً**»، فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فقال: «**مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**- وفي رواية: **اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ- أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**».

١٠- وعن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله، إني رجل شاب، وأنا أخاف على نفسي العنت ولا أجد ما أتزوج به النساء، فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك،

(١) أخرجه الطبراني في الكبير

(٢) أخرجه الترمذي.

فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك، فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك، فقال النبي ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ جَفَّ القَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ فَاخْتَصِ عَلَى ذَلِكَ أَوْ ذَرْ»[1].

١١- وعن عبدالله بن عباس قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا فقال لي: «يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَسَلِ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[2].

١٢- وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا عبدالمؤمن هو ابن عبدالله قال: كنا عند الحسن فأتاه يزيد بن أبي مريم السلولي يتوكأ على عصا، فقال: يا أبا سعيد، أخبرني عن قول الله ﷻ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾[3]؛ فقال الحسن: نعم، والله إن الله ليقضي القضية في السماء ثم يضرب أجلًا إنه كان في يوم كذا في ساعة كذا وكذا، في الخاصة والعامة، حتى إن الرجل ليأخذ العصا ما يأخذها إلا

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) سورة الحديد آية: ٢٢.

بقضاء وقدر، قال: يا أبا سعيد، والله لقد أخذتها وإني عنها لغني ثم لا صبر لي عنها، قال الحسن: أولا ترى.

١٣ - وقال أبو داود: خطب عمر بن الخطاب بالجابية؛ فحمد الله وأثنى عليه، وعنده مترجم يترجم له ما يقول؛ فقال: من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، فنغض جبينه كالمنكر لما يقول، قال عمر: ما يقول؟ قالوا: يا أمير المؤمنين يزعم أن الله لا يضل أحدًا، قال عمر: كذبت أي عدو الله بل الله خلقك وقد أضلك ثم يدخلك النار، أما والله لولا عهد الله لك لضربت عنقك، إن الله خلق أهل الجنة وما هم عاملون وخلق أهل النار وما هم عاملون فقال: هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه، قال: فتفرق الناس وما يختلفون في القدر.

١٤ - وفي الحديث: «**مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ إِصْبعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ**»[1].

١٥ - وعن جابر ﷺ: كان النبي ﷺ كثيرًا ما يقول: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**» فقيل: أتخاف علينا وقد آمنا بك وبما حدثت به؟ فقال: «**إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبِعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا هَكَذَا**» وأشار إلى السبابة والوسطى[2].

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

(٢) أخرجه الحاكم.

ثمرة الرضا بالقضاء والقدر

للرضا بالقضاء نتائج سارة وثمرات طيبة:

أولًا: الإقدام على العمل والعبادة.

من تلك النتائج السارة والثمرات الطيبة: أن الإنسان متى اعتقد اعتقادًا جازمًا أن ما قضاه الله تعالى في علمه لابد أن يتم وأن ما قدره لابد أن يكون متى اعتقد ذلك انطلق في هذه الحياة ليؤدي ما يجب عليه نحو خالقه عز وجل ونحو عقيدته ونحو ذاته ونحو غيره؛ يؤدي التكاليف التي كلف بها بكل نشاط وإقدام وإخلاق وإتقان ثم بعد ذلك يترك النتائج لله عز وجل يصرفها كيف يشاء.

ثانيًا: قوة ومضاء العزيمة.

ومن فوائد الإيمان بالقضاء والقدر أنه يكسب صاحبه قوة ومضاء العزيمة، إذ إن مَن اطمأنت نفسه إلى أن ما أصاب المرء لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه خلت جميع أعماله من الحيرة والتردد وانتفى من حياته القلق والاضطراب؛ لأنه بمجرد ما يترجح لديه الإقدام على أمر أقدم عليه في غير خوف ولا هيبة أو تردد.

ثالثًا: التواضع.

ومنها: أن العبد لا يرى في نفسه إذا أحسن أنه هو فاعل هذا الإحسان فيفرح ويشعر بالزهو والفخر؛ فإن أعمالنا حقيقة لله وحده وإنما أضافها إلينا ابتلاء واختبارًا لينظر تعالى- وهو العالم بما يكون قبل أن يكون- هل ندعيها لأنفسنا فيقيم الحق تعالى بذلك علينا الحجة أو نضيفها له فنقف موقف الأدب وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾[1]، فإنه تعالى إنما قال ذلك لينظر هل نضيف إليه تعالى ما أضافه إلى نفسه مع جهلنا بالكيف أم نرد ظاهر ذلك ونؤوله فنقع في سوء الأدب.

رابعًا: الشجاعة والكرم.

ومنها أيضًا: أنه يكون من أشجع الناس عقلًا وقلبًا وأكرمهم قولًا ونفسًا لأنه يعرف أن أجله محدود، ورزقه معدود، فلا الجبن يزيد في عمره، ولا البخل يزيد في رزقه.

فإنه يغرس في الإنسان الشجاعة التي تجعله يتحمل المشاق ويخوض الأهوال ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وينطق بكلمة الحق ويحرص على مواصلة الأعمال الصالحة، وإذا مسه الضر لا يجزع وإذا صادفه التوفيق

---

(١) سورة محمد آية: ٣١.

والنجاح لا يبطر؛ لأنه بعد أن أدى واجبه كاملًا غير منقوص فوض الأمر لخالقه الذي اقتضت سنته أنه لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

خامسًا: السعادة في الدنيا بعدم حمل همِّ المستقبل.

ومنها: أنه لا يحزن على ما فاته ولا يغتم لما يضره من الحادث، ولا يديم التفكير إلى أن يصبح مهمومًا بالمستقبل، وبذلك يكون أسعد الناس حالًا، وأطيبهم نفسًا وأصلحهم بالًا، وأهداهم خاطرًا.

يقول الشيخ ابن عطاء الله السكندري: **"أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك لك لا تقم به لنفسك"**.

فهو يوصي بترك التدبير، والتدبير تقدير شئون تكون عليها في المستقبل مما يخاف أو يرجى كأن تصبح مهمومًا بالمستقبل همًّا دائمًا، أما إذا دبرت مع تفويض الأمر لله تعالى لم يكن تدبيرًا مذمومًا لأنك لا تكون مهمومًا به.

ويبين الشيخ سبب الوصية بترك التدبير؛ فإن الهم بالمستقبل يجعل الإنسان مقصرًا فيما طلب منه من العبادة لله تعالى؛ فهو يقول: إن المستقبل قام به الله تعالى عنك أي قدره وأنت لا تستطيع تغييره فما قدره الله تعالى لا تتعب أنت نفسك بالتفكير فيه بحيث تصبح مهمومًا به "ما قام به غيرك لك لا تقم به لنفسك"؛ وذلك لأن- كما يقول الشيخ ابن عطاء الله:

"اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك".

لأنك أتيت بالشيء على غير وجهه ووضعته في غير محله لأنك تركت ما أمرت بالقيام به وقمت بما كفاك الله أمره وهو المضمون من الرزق، قال البعض: **"إن الله ضمن لنا الدنيا وطلب منا الآخرة، فليته ضمن لنا الآخرة وطلب منا الدنيا".**

سادسًا: فهم الشريعة فهمًا صحيحًا.

ومن ثماره كذلك: أنه يجعل الإنسان يفهم شريعة الإسلام فهمًا صحيحًا، هذا الفهم يجعل المسلم يحارب الفقر بالعمل ويحارب الجهل بالعلم ويحارب الرياء والنفاق بالإخلاص والصدق ويقاوم المرض والسقم باستعمال الدواء واتخاذ وسائل العلاج ويرد على شبهات المارقين والملحدين بالبراهين الشرعية والعقلية التي تهدم باطلهم وتأتي على بنيانهم من القواعد.

ومما لا شك فيه أن هذه الصفات كانت واضحة في سلف هذه الأمة؛ أمة الإسلام أيام كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة في نفوسهم قوية في قلوبهم، فقد فاقوا الناس شجاعة وكرمًا، وصبرًا وحلمًا، ومعرفة وعلمًا، الأمر الذي تمكنوا به من سيادة العالم وقيادته مدة من الزمن طويلة.

الإيمان بالقضاء والقدر لا ينافي الأخذ بالأسباب.

١ - التصديق بالقضاء والقدر.

قد وردت أحاديث متعددة تتضمن أن من شعب الإيمان التصديق بالقضاء والقدر، ومعنى الإيمان بهما - كما قلنا - التصديق بأن الله تعالى أوجد كل شيء، وأن ما أوجده الله تعالى من الأشياء، سواء كان ذاتًا أو صفة أو فعلًا، كان إيجاده بغاية الإحكام والإتقان على الوجه الأكمل، وبأنه علم في الأزل ما تكون عليه المخلوقات في الحاضر.

والإيمان بهذين الأمرين لم يخالف أحد في وجوبه أصلًا.

ولقد أخبرنا صلى الله عليه وآله وسلم في حديثه الصحيح أن الإيمان بالقضاء والقدر جزء من عقيدة المؤمن، فعندما قال جبريل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: «فأخبرني عن الإيمان» أجابه قائلًا: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1] فقال له: صدقت.

---

(١) سبق تخريجه.

٢- الأخذ بالأسباب.

وواضح أن الإيمان بأن الله حكيم في إيجاده عالم بما يقع لا ينافي الأخذ بالأسباب، فإن الله تعالى عالم أزلًا بالمسببات وأسبابها؛ فيعلم أزلًا أن فلانًا يؤمن ويعمل صالحًا بطوعه واختياره، فيدخل الجنة، كما علم أزلًا أن فلانًا يأكل باختياره فيشبع، وأن فلانًا يضع البذر في الأرض باختياره فينبت الزرع؛ والعبد يفعل هذه الأشياء باختياره بدون إكراه ولا جبر، وتقديره أن العبد يباشر العمل مختارًا لا يجعل العبد مضطرًا فإن للعبد ظاهرًا أن يفعل ما يريد وله قدرة وإرادة في الفعل وإن كانت غير مؤثرة فيه لكنه يحاسب عليها، فالإيمان بالقضاء والقدر لا ينافي الأخذ بالأسباب ولا مؤاخذة العبد بما كسب، لأن الإيمان بهما لم يتعد التصديق بأن الله تعالى أوجد الأشياء بقدرته على وفق إرادته على مقتضى علمه بها على ما هي عليه في الحاضر، وقد علم أزلًا أني أباشر الأسباب باختياري، وأن لي عملًا أحاسب عليه، وبأن إيجاده للأشياء على وجه الإحكام.

وقد جاء القرآن بمطالبتنا بمباشرة الأسباب قال تعالى: ﴿ فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾[1]، وقال تعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠.

وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[2].

وقد نهانا النبي ﷺ عن أن نكون عالة على الناس، وكان عليه الصلاة والسلام يأخذ الاستعداد للحرب ويحفر الخنادق ويستعين بأصحابه، ويتداوى ويأمر بالتداوي.

فليس معنى الإيمان بالقدر عدم مباشرة الأسباب التي شرعها الله تعالى لأن ما سجله الله تعالى في كتابه علينا قبل أن يخلقنا لا علم لنا به، وإنما مرده إليه وحده، وهو سبحانه سيحاسبنا على ما نفعله وعلى ما أمرنا به وما نهانا عنه.

وعندما قال بعض الصحابة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: أفلا نتكل على ما قدره الله علينا؟ أجابهم قائلًا: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[3].

وعلى ذلك لا يجوز الاتكال على القدر بترك الأخذ في الأسباب كترك السعي في طلب الرزق؛ فإن الله ربط الأسباب بالمسببات وأمر بالسعي في طلبها وتعاطي كل سبب لجلب نفع ودفع ضر، وأوجب العقوبة على ترك

---

(١) سورة الجمعة آية: ١٠.

(٢) سورة النحل الآية ١٤.

(٣) سبق تخريجه.

الأخذ في الأسباب وكل من قوي إيمانه قوي تعلقه بها ولم يهمل شيئًا منها مع الاعتماد على ربه.

وكل من تباطأ عن شيء من الأسباب اتهم بخلل في عقله وترتب عليه الإثم والعقاب ولوم الناس عليه.

ومن ذا يسلم بكون الاعتقاد بالقضاء والقدر يسوق معتقديه إلى العطالة، فتلك العقيدة بتمام معناها: رد كل شيء إلى الله والإذعان بأن الأمر كله بيده، لكن هذا الرد وهذا الإذعان لا يتضمن قعود الإنسان واضعًا إحدى يديه على الأخرى كالمكتوف، وإنما مضمونه أن يعتقد مع عدم التقصير في المساعي التي هي في وسعه أن مساعيه أيضًا من الله.

٣- الفرق بين المسلمين الأقدمين ومسلمي هذا الزمن.

وإذا بحثنا في الناحية العملية فالمسلمون الأقدمون الأقوياء في دينهم ما كانوا عاطلين ولا مغلوبين بين الأمم ؛ فهل هم اكتسبوا قوتهم في الحياة من إنكار القدر؟

أريد أن أقول: لا يستطيع أحد أن يدعي أنهم كانوا لا يؤمنون بالقضاء والقدر، أما مسلمو هذا الزمان فلا يتركون أمرهم إلى القدر ولا يردون كل شيء إلى الله بل يأملون كل شيء من العباد ويتزلفون إليهم ويتملقون لمن رأوا الأمور بيده لا يخافون الله ويخافون كل شيء، وإنهم لا يألون جهدًا في

الحصول على منافعهم الخسيسة وطلب الأمن والراحة لهم ولو كان في ظـل من الذل باسم العمل بالأحوط.

يَـرَى الجُبَنَـاءُ أَنَّ الجُـبْنَ حَـزْمٌ   وَتِلْـكَ خَدِيعَـةُ الطَّبْـعِ اللَّئِـيمِ

فيظهر أن لا إيمان لهم بالقدر أو أن إيمانهم به ضعيف كل الضعف.

فمسلمو زماننا إن قالوا بأفواههم أنهـم يؤمنـون بالقـدر فـإنما يقولونـه سـترًا للنقص الواقع في إيمانهم به، ويظن الغافل أن إيمانهم به سـبب انحطـاطهم، ولـو صح إيمانهم به وتم لكانوا شجعانًا لا يقصرون عن التضحية بالأموال والأنفـس ويستحقرونها في سبيل الغايات السامية، فالأجدر بالمسلمين أن يجتهدوا في إحياء عقيدة القضاء والقدر وتجديدها عند أنفسهم بدلًا من إضعافها.

٤ - الإيمان بالقدر لا يسوق الإنسان إلى ترك السعي في الدنيا.

إن من يؤمن بالقدر ويرد كل شيء إلى تقدير الله لما كان يعتقد أن اجتهاده في سعادة دنياه وأخراه أو تقصيره في طريق سعادتهما مقدران أيـضًا ينظـر في أمره فإن رأى سعيه للخير يستبشر منـه كونـه مـن عبـاد الله الـذين خلقهـم ليكونوا سعداء وييسره للسعي في سبيله فيزيـد سـعيًا عـلى سـعيه، وإن رأى خلافه واستشعر شقاءه في الدنيا والآخرة فهل يقعـد مطمئنًـا ومـستريحًا أم يخاف من احتمال كونه في زمـرة مـن كتـب لهـم الـشقاء في الـدنيا والآخـرة وينساق بسبب هذا الخوف إلى طريق السعادة؟

إن السعي للعمل ليس إلّا وسيط لتحقيق القدر ويؤيد ذلك قوله عليه السلام: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[1]، وقد سبق حديث هشام بن حكيم أن رجلًا قال: يا رسول الله، أنبتدئ الأعمال أم قد مضى القضاء؟ فقال: « **إنَّ اللهَ لَمَّا أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ وأَشْهَدَهُم عَلَى أَنْفُسِهِم ثُمَّ أَفَاضَ بِهِم فِي كَفَّيْهِ فَقَالَ: هَؤُلاءِ لِلْجَنَّةِ وهَؤُلاءِ لِلنَّارِ فَأَهْلُ الجَنَّةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ وأَهْلُ النَّارِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ**»[2]، وحديث عبدالله بن عمر أنه قال لما نزل ﴿ **فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ** ﴾ فقال عمر: يا نبي الله، علام نعمل؛ على أمر قد فرغ منه أم لم يفرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: «**عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ وَقَدْ جَرَتْ بِهِ الأَقْلَامُ وَلَكِنْ كُلٌّ مُيَسَّرٌ**»... الحديث[3]؛ ولما سمعه وأمثاله بعض الصحابة قال: «ما كنت أشد اجتهادًا مني الآن» وهو يدل على جلالة فقه الصحابة ودقة أفهامهم وصحة علومهم، وقال بعض السلف : "والله ما أحب أن يجعل أمري إليَّ وكون أمري بيد الله خير من أن يكون بيدي".

فالإيمان بالقدر يسوق معتقده دائمًا إلى السعي والعمل فيرى منفعته في المساعي قائلًا: إن لم يثمر أحدهما فيثمر الآخر، ومؤملًا خيرًا من أسرار

---

(١) أخرجه الطبراني عن ابن عباس.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي.

القدر، ولا يمكنه تفسير القدر في مصلحته إلَّا بهذه الطريق؛ لأن المقدر غير معلوم ولا أمارة له غير أفعاله وأعمال.

أما من لا يؤمن بالقدر فإنه ينسب كل شيء لنفسه فييأس إن لم ينل ما سعى لأجله ويفرح فرحًا كبيرًا يكاد أن يجن بسببه إن نال ما سعى لأجله لأنه يظن أنه هو السبب في ما حدث له من خير، أما معتقد القدر والمعتمد عليه فلا ييأس ولا يتعب بسهولة، وكم فرق بين إقدام الرجل على الأعمال العظيمة إذا كان يعتقد أنه مسير إليها من الله وبينه إذا كان يعتقد أنه هو الفاعل الحقيقي.

ثم إن معتقد القدر لا ينسى إذا ما وفقه الله أن يزين أعماله بالتواضع ولا يفرح فرحًا كبيرًا، وما أحسن ما أفاد قوله سبحانه وتعالى من تلك المزايا الدقيقة التي يتضمنها الإيمان بالقدر: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

الحاصل أنه لا وجه لذهاب أحد إلى أن عقيدة ربط كل شيء بالقدر ورده إلى الله تعوق الإنسان عن السعي والعمل وما تقتضيه الحياة من الحركات مستسلمًا للقدر؛ فإن الإنسان لا يجلس تحت بناء أحس بأنه ينهدم

---

(١) سورة الحديد آية: ٢٢، ٢٣.

عليه بسبب اعتناقه عقيدة أنه لا يجري في الكون إلّا حكم إرادة الله بل يفر من تحته مثله مثل من لا يعتنق هذه العقيدة.

وجملة القول: أن سعي الإنسان لدنياه لا يُخاف عليه من إيمانه بالقدر قطعًا كما قلنا وأنت لا تجد أحدًا يجادلك في البقاء تحت جدار أو سقف أخذا ينهدمان محتجًّا بالقدر وقائلًا: إن الله يوقفني هنا، ولا أحد يموت من الجوع ويأبى كسب رزقه أو يرد لقمة أعطاها له أحد الناس محتجًّا بالقدر وقائلًا: إن ربي قدر أن أموت جوعًا.

أما المقصرون في وظائفهم الدينية والفاعلون للمناهي ثم المحتجون بالقدر استهتارًا منهم فقل لهم: إن احتجاجكم بالقدر لا يغني عنكم من عذاب جهنم شيئًا لكونه مقدرًا أيضًا، وأنتم إن حاججتم الله فلا تحجونه وتكون لكم شقوتكم؛ فإن أجابوك بأنهم راضون فاعلم أنهم لا يؤمنون باليوم الآخر ولا بالقدر؛ فإن لم يرضوا فليكفوا عن الجدال فإن حجتهم داحضة عند ربهم.

٥- لا يجوز الاحتجاج بالقدر على ارتكاب المعاصي.

وكما أن الإيمان بالقدر لا ينافي الأخذ بالأسباب كذلك لا يجوز الاحتجاج بالقدر في ارتكاب المناهي وترك الأوامر فقد نهى عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وصار الاعتذار به معدودًا من الحماقة من الناس ولا

يرضى به إنسان في أحواله الخصوصية لما هو ثابت في الطبيعة من اعتقاد أن الإنسان يكسب عمله وترتيب الجزاء على هذا الكسب دينًا ودنيا.

وهو تعالى لم يجبر أحدًا على معصية، ولا اضطره إلى ترك طاعة، ولم يأمر ولم ينه إلا بما يستطاع من الفعل والترك، وللعبد كسب يجزى على حسنه بالثواب، وعلى سيئه بالعقاب، وهو راض بقضاء الله وقدره.

* * *

حكمة خلق الله تعالى الأسباب

علمت أنه لا ينافي الإيمان بالقضاء والقدر والتوكل على الله تعالى اتباع السبب كما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بقوله: «اتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا»[1] فقد أباح الطلب، ولو كان منافيًا لمقام التوكل على الله لما أباحه لأنه لم يقل: لا تطلبوا إنما قال: «أجملوا في الطلب» فكأنه قال: إذا طلبتم فاطلبوا مجملين أي كونوا مع الله في الطلب متأدبين وإليه مفوضين.

فقد أباح صلوات الله عليه وسلامه وجود الطلب، والطلب من الأسباب وقد سبق من قبل الأحاديث الدالة على جواز الأخذ بالأسباب بل على الحث عليها والندب إليها.

وفي الأسباب فوائد:

الفائدة الأولى:

أن الحق تعالى علم ضعف قلوب العباد وقصورهم عن مشاهدة قسمة الرزق وعجزهم عن صدق الثقة فأباح لهم الأسباب إسنادًا لقلوبهم وتثبيتًا لنفوسهم فكان ذلك من فضله عليهم.

---

(١) رواه ابن ماجه.

الفائدة الثانية:

أن في الأسباب صيانة للوجوه عن الابتذال بالسؤال وحفظًا لبهجة الإيمان أن تذل بالطلب من الخلق.

فما يعطيك الله من الأسباب فلا منة فيه لمخلوق عليك إذ لا يمن عليك أحد إن اشترى منك أو استأجرك على عمل شيء فإنه في حظه سعى ونفع نفسه قصد فالسبب أخذٌ منه بغير منة.

الفائدة الثالثة:

أن في شغل العباد بأسبابهم شغلًا عن معصية الله تعالى والتفرغ إلى مخالفته؛ ألا تراهم إذا تعطلت أسبابهم في أعيادهم وغيرها كيف يتفرغ أهل الغفلة لمخالفة الله تعالى وينهمكون في معصية الله، فكان شغلهم بالأسباب رحمة من الله عليهم.

الفائدة الرابعة:

أن في الأسباب والقيام بها رحمة بالمتجردين ومنة من الله على المتوجهين لطاعته والمتفرغين لها، ولولا قيام أهل الأسباب بها فكيف كان يصح لصاحب الخلوة خلوته ولصاحب المجاهدة مجاهدته فجعل الحق تعالى أهل الأسباب كالخَدَمة للمتوجهين إليه والمقبلين عليه.

الفائدة الخامسة:

أن الحق تعالى أراد من المؤمنين أن يتألفوا لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] فكانت الأسباب سببًا لتعارفهم وموجبة لتوادهم.

ولا ينكر الأسباب إلا جاهل أو عبد عن الله غافل.

ولم يبلُغنا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام لما دعى الناس إلى الله أمرهم بالخروج عن أسبابهم ولكن أقرهم على ما يرضاه الله منها ودعاهم إلى وجود الهدى، والقرآن والسنة محشوان بإثبات الأسباب.

* * *

---

(١) سورة الحجرات آية: ١٠.

شبهة الغربيين في عقيدة القضاء والقدر والرد عليها

أولًا: شبهة الغربيين:

اعتقد الغربيون أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبور محض في جميع أفعاله، وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل، وظنوا أنه متى ثبت في نفوس قوم أنه لاختيار لهم في قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون وإنما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة عظيمة فلا ريب تتعطل قواهم ويفقدوا ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى وتمحى من خواطرهم الداعية للسعي والكسب، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم.

هكذا ظنت طائفة من الغربيين وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول من المشرق، وافتروا على الله والمسلمين كذبًا.

ثانيًا: الرد على شبهة الغربيين:

١ - لا يوجد مسلم الآن يرى أنه مجبور على كل شيء جبرًا مطلقًا.

لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي وزيدي وإسماعيلي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءًا اختياريًّا في أعمالهم ويسمى بالكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم وأنهم محاسبون بها وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية والنواهي الربانية الداعية إلى كل خير الهادية إلى كل فلاح وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي وبه تتم الحكمة والعدل.

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت إلى أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطرارًا ليس فيه أي اختيار، وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه بالأكل والمضغ وبين أن يتحرك برعشة البرد التي تحدث بلا رغبة منه ، ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من السفسطة الفاسدة، وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم أثر.

٢ - **الاعتقاد بالقضاء والقدر ليس هو عين الاعتقاد بالجبر.**

وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون.

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع بل ترشد إليه الفطرة ويسهل على من له فكر أن يلتفت إلى أن كل ما يحدث له سبب يحدث معه وهو يرجع إلى مُنشئ نظام الكون وأن مبدأ هذه الأسباب التي ترى في مظاهر مؤثرة إنما هو بيد مدبر الكون الأعظم الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته وجعل كل حادث تابعًا لشبيهه كأنه جزاء له خصوصًا في العالم الإنساني.

ولو فرضنا أن جاهلًا ضل عن الاعتراف بوجود الله صانع للعالم فليس في إمكانه أن يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية في الإرادات البشرية فهل يستطيع إنسان أن يخرج نفسه عن هذه السنة التي سنها الله في خلقه؟

هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلًا عن الواصلين للحقائق.

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والإقدام وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الأسود وتنشق منها صدور النمور.

هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ويحليها بحلي الجود والسخاء ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها بل يحملها على بذل الأرواح والتخلي عن نضرة الحياة كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعانا للاعتقاد بهذه العقيدة الذي تقول بأن الأجل محدود والرزق مكفول والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء.

فمن يعتقد هذه العقيدة كيف يخاف الموت في سبيل الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته والقيام بما فرض الله عليه من ذلك وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية.

٣- أثر الإيمان بالقدر في المسلمين الأوائل.

اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها فدخلوا الدول وقهروا الأمم وامتدت سلطتهم من أسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين مع قلة عددهم وعدتهم؛ أرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والأكاسرة في مدة لا تجاوز ثمانين سنة.

إن هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات.

وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر.

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش تملأ الفضاء وتضيق بها الصحراء.

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق وانقضت شهبها على الكافرين في الحروب في المغرب.

هو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم لا يخشون فقرًا ولا يخافون مرضًا.

هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم كأنما يسيرون إلى الحدائق والرياض، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانًا من كل ما يغدر بهم وأحاطوها من الاعتماد عليه بجدار يصونهم من كل حادثة.

وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج إليه لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح، ولا يأخذ النساء ولا الأولاد خوف.

هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الأكباد، كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم فينهزمون بجيش الخوف قبل أن يشموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم بل قبل أن تصل إليهم أطراف جيوشهم.

٤ - الإيمان بالقضاء والقدر سبب عظمة كل فاتح أو محارب شهير.

من بداية تاريخ البشر إلى اليوم ما وجد فاتح عظيم ولا محارب شهير ظهر في أي طبقة من الطبقات ذلت له الصعاب وخضعت الرقاب وبلغ من الملك ما يدعو إلى العجب ويبعث الفكر لطلب السبب إلا كان معتقدًا بالقضاء والقدر.

سبحان الله! الإنسان حريص على حياته فما الذي يهون عليه اقتحام المخاطر وخوض المهالك ومصارعة الموت إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر واطمئنان قلبه إلى أن المقدر كائن.

أ- كيخسرو.

أثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسي (كيخسرو) وهو أول فاتح يعرف في تاريخ الأقدمين لم يستطع النصر في فتوحاته الواسعة إلا لأنه كان معتقدًا بالقضاء والقدر فكان بسبب هذا الاعتقاد لا يخاف من أي جيش لأي دولة ولا تضعف عزيمته.

ب- الإسكندر الأكبر.

وثبت أيضًا أن الإسكندر الأكبر اليوناني كان ممن رسخ في نفسه هذه العقيدة الجليلة.

جـ- جنكيز خان.

وجنكيز خان التتري صاحب الفتوحات المشهورة كان من أصحاب هذا الاعتقاد.

د- نابليون بونابرت.

بل كان نابليون الأول بونابرت الفرنسي من أشد الناس تمسكًا بعقيدة القضاء وهي التي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة فيتهيأ له النصر.

فنعم الاعتقاد الذي يطهر النفوس الإنسانية من رزيلة الجبن وهو أول ما يقف أمام من لا يؤمن به عن بلوغ الكمال.

ثالثًا: عوام الناس وعقيدة القضاء والقدر.

نعم نحن لا ننكر أن هذه العقيدة قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر وربما كان هذا سببًا في إصابتهم ببعض المصائب، وعلماء المسلمين يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما ظهر بها من البدع، ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون، وينشروا بينهم أن التوكل والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منا في العمل لا في البطالة والكسل، وما

أمرنا الله أن نهمل فروضنا ونترك ما أوجب علينا بحجة التوكل عليه فتلك حجة الخارجين عن الدين المائلين عن الصراط المستقيم.

ولا يشك أحد من أهل الدين الإسلامي في أن الدفاع عن الملة من هذه الآفات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف، وليس بين المسلمين وبين الالتفات إلى عقائدهم الصحيحة التي تجمع كلمتهم وترد إليهم عزيمتهم وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول إلا دعوة خير من علمائهم.

أما ما زعمه الغربيون في المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة ولا غيرها من العقائد الإسلامية.

* * *

أحاديث في ذم المكذبين بالقضاء والقدر

هناك أحاديث كثيرة في ذم المكذبين بالقدر أي الذين لا يؤمنون بأن الله خالق كل خير وشر نذكر منها ما يلي:

١- قوله ﷺ: «سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ يُكَذِّبُونَ بِالقَدَرِ[١]»[٢].

٢- وقوله: «سِتَّةٌ لَعَنْتُهُمْ وَلَعَنَهُم اللهُ وَكُلُّ نَبِيٍّ مُجَابٍ: الزَّائِدُ فِي كِتَابِ الله وَالمُكَذِّبُ بِقَدَرِ الله وَالمتَسَلِّطُ بِالجَبَرُوتِ فَيُعِزُّ بِذَلِكَ مَنْ أَذَلَّهُ اللهُ وَيُذِلُّ مَنْ أَعَزَّهُ اللهُ وَالمُسْتَحِلُّ لِحَرَمِ الله وَالمُسْتَحِلُّ مِنْ عِتْرَتِي مَا حَرَّمَ اللهُ وَالتَّارِكُ لِسُنَّتِي»[٣].

٣- وقوله: «سَبْعَةٌ لَعَنْتُهُمْ وَكُلُّ نَبِيٍّ مُجَابٍ: الزَّائِدُ في كِتَابِ الله وَالمُكَذِّبُ بِالقَدَرِ وَالمُسْتَحِلُّ حُرْمَةَ الله، وَالمُسْتَحِلُّ مِنْ عِتْرَتِي مَا حَرَّمَ اللهُ وَالتَّارِكُ لِسُنَّتِي وَالمُسْتَأْثِرُ بِالْفَيْءِ وَالمُتَجَبِّرُ بِسُلْطَانِهِ لِيُعِزَّ مَنْ أَذَلَّ اللهُ وَيُذِلَّ مَنْ أَعَزَّ اللهُ»[٤].

---

(١) أي لا يصدقون بأن الله تعالى خالق لأفعال العباد من خير وشر.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل والحاكم عن ابن عمر.

(٣) أخرجه الترمذي والحاكم عن عائشة.

(٤) أخرجه الطبراني عن عمرو بن شغوي.

٤- وقوله: «أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي ثَلَاثًا حَيْفَ الأَئِمَّةِ وَإِيمَانًا بِالنُّجُومِ وَتَكْذِيبًا بِالقَدَرِ»[1].

وقد اعتبر الشراح ما جاء في الحديث الأول من ذم الكلام في القدر في سياق الأحاديث الأخر وما فيها من الوعيد على التكذيب وعدم الإيمان به.

* * *

(١) أخرجه ابن عساكر عن أبي محجن.

أفعال العباد . .

أو . .

هل الإنسان مسير أم مخير؟ . .

معنى "أفعال العباد"

أولًا: أفعال العباد.

قبل الحديث عن العقيدة الصحيحة في موضوع أفعال العباد يجب أولًا أن تفهم معنى "أفعال العباد".

يراد بأفعال العباد كل ما يصدر من الإنسان من فعل ظاهري أو داخلي سواء كان بأعضائه أو بحواسه أو بعقله أو بقلبه خيرًا أو شرًّا طاعة أو معصية كل هذا يسمى "فعل العبد".

وهذا القسم يسمى أفعال اختيارية، أما الأفعال الاضطرارية كدقات القلب وحركة المرتعش فهذه لم يختلف أحد أن الإنسان ليس له دخل فيها.

ثانيًا: علاقة مسألة أفعال العباد بالقضاء والقدر.

فإذا سألت: ما علاقة هذا الموضوع بالقضاء والقدر؟

أجيبك بأن الإيمان بالقضاء والقدر كما فهمت مما سبق يعني: الإيمان بأن كل ما في الكون يعلمه الله تعالى وقدره في الأزل قبل خلق الكون وأراد أن يكون ثم إنه تعالى أوجده على مقتضى علمه وإرادته كما أراده لم يتغير ولم يتبدل ولا يجوز أن يتغير.

وفعل العبد من الأشياء التي توجد في الكون.

وإذا كان القضاء والقدر مما لم يختلف المسلمون في أنه من الله تعالى وأنه يعلم ما في الكون وأوجده- إلا بعض الطوائف الخارجة- لكن الإنسان بسبب كونه محاسبًا على أفعاله اختلفت طوائف المسلمين في كون أفعاله بقدرته وإرادته أو هي من إرادة الله تعالى كما أن كل شيء في الكون علِمه وأراده وقدر وقوعه؟

ويعبر العوام عن مسألة أفعال العباد بقولهم: الإنسان هل هو مسير أم مخير؟

وقد ضلت طوائف من المسلمين كما سبق وذكرت في أفعال العباد، والعقيدة الصحيحة هي عقيدة أهل السنة والجماعة كما ستعلم.

* * *

الآراء الخاطئة في مسألة أفعال العباد

١ - الجبرية

وجد من بعض المسلمين من لم يفهم عقيدة القضاء والقدر حق الفهم فكان هذا سببًا في أن مال عن جانب الصواب إلى جانب الخطأ، فوجد منهم من جرد الإنسان من أي اختيار ونسب كل شيء إلى القضاء والقدر؛ فالإنسان عنده لا إرادة له ولا قدرة له على فعل شيء بل هو كالريشة المعلقة في الهواء، وهؤلاء يسمون (الجبرية) وقد سبق أن قلنا إن هذه الفرقة لم تعد موجودة الآن ولذلك لن نتكلم عنها كثيرًا.

أ- بداية ظهور القول بأن الإنسان ليس له أية إرادة أو قدرة.

أول من ظهر منهم هذا القول الجعد بن درهم، وكان قد تلقى مذهب الجبر من يهودي من يهود الشام، وتلقاه عنه الجهم بن صفوان رئيس الطائفة الجهمية.

ب- معنى الجبر.

حقيقة الجبر: أن الإنسان لا دخل له في أفعاله، فليس له إرادة ولا اختيار ولا قدرة، بل هو كالريشة المعلقة في الهواء- كما سبق وقلنا- تتحرك وفق القدر ولا دخل له في أي شيء.

جـ- الرد على الجبرية.

لو قلنا بما قال به الجبريون يكون العبد غير مؤاخذ على أفعاله، ولا يعاب منه فعل ولا يلام عليه ولو كان في غاية القبح والفساد، ولذا كان هذا المذهب شرًّا من المذهب القدري المجوسي.

* * *

٢- القدرية

كما وجد منهم من أنكر أن أفعال الإنسان من نظام القضاء والقدر فنسب فعل الإنسان إلى نفسه ونسب إلى الله تعالى أن يكون شيء في الكون خارج عن إرادته، وهؤلاء يسمون (القدرية) ومن أصحاب هذا الرأي من يسمى (المعتزلة).

قد ينكر البعض هذا الكلام فيقول: كيف وجد من ينكر ويجادل في القدر؟

فنوضح ما قلناه سابقًا بأن القدر الذي وجد بين المسلمين من ينكره ويجادل فيه ليس هو القدر العام الذي يشمل الكون كله، وما يجري فيه من أحداث لا يد للإنسان فيها ولا قدرة على دفعها أو تغييرها إذ هي جارية على نظام السنن التي يقول تعالى فيها: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً ﴿٤٣﴾ ﴾[1]، وإنما هو القدر الخاص المتعلق بأفعال العباد سيئها وحسنها، صالحها وفاسدها.

---

(١) سورة فاطر آية: ٤٣.

أ- بداية ظهور القول بأن الإنسان خالق أفعاله على الحقيقة.

وأول ما ظهر القول بذلك كان على عهد عمر بن عبدالعزيز الخليفة الأموي الراشد، وذلك في حدود المائة الأولى من الهجرة، قال به وأظهره ودعا إليه غيلان الدمشقي حتى قتله هشام بن عبدالملك.

أما ما روي من أن القول بنفي القدر كان في أواخر أيام الصحابة رضي الله عنهم فإن ما قيل في تلك الأيام كان مجرد قول قاله فرد أو أفراد فأنكره عليهم من وجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم حتى قضوا عليه وأخمدوا فتنته إلى حين.

ب- معنى نفي القدرية للقدر.

ونفي هذه الطائفة للقدر معناه أن الأمور المتعلقة بأفعال العباد لم تقض أزلًا ولم تكتب في كتاب المقادير ولم يعلمها الله تعالى.

جـ- شبه القدرية:

قد علمت أنه قد وجد من المسلمين من يقول بنفي القدر عن أفعال العباد، فزعم أن العبد يخلق أفعاله بنفسه، وأن الله تعالى لا دخل له في ذلك ولا عمل، وأن أفعال العباد لم تُقدَّر ولم يعلمها الله تعالى قبل وجودها، وهذه هي الشبه التي أثارتها هذه الطائفة.

أولًا: الله تعالى لا يفعل القبيح.

وشبهة القدرية أن من أفعال العبد ما هو قبيح والله تعالى لا يفعل القبيح بل هو ينهى عنه ويحرمه، وهذا هو أساس شبهتهم التي بنوا عليها مذهبهم في كون الله تعالى لم يخلق أفعال العباد ولم يقدرها، وإنما العبد وحده هو الخالق لأفعاله.

ثانيًا: كيف يخلق الله تعالى أفعال العباد ثم يعاقبهم عليها؟

وأضافوا إلى الشبهة السابقة شبهة أخرى، وهي قولهم: كيف يخلق الله أفعال العباد ثم يعاقبهم عليها.

د- الرد على القدرية:

يرد على القدرية بأنه ما دام العبد يستقل بخلق أفعاله فقد أصبح ربًّا يخلق ما أراد أن يخلق من الأفعال، وبطل ذلك التوحيد الذي هو أصل الدين وأساسه، ومن هنا سموا بمجوس هذه الأمة لأنه على أساس مذهبهم يتعدد الخالقون لأن الإنسان عندهم خالق أفعاله بمقتضى قدرته وعلمه لا بمقتضى قدرة الله تعالى وعلمه.

هـ- نصوص من الكتاب والسنة في إثبات القدر بمعناه الخاص والعام.

نحن نقول: إن نصوص الكتاب والسنة في إثبات القدر بمعناه الخاص والعام متكاثرة متضافرة بحيث يعد منكرها خارجًا عن جماعة أهل السنة لا مقام له بين المسلمين، وها نحن نورد تلك النصوص تسجيلًا لها في هذا المقام بهذه المناسبة ليتعود القلب عليها ويتذكرها كلما جاءته أفكار وشبه قد تأتي إلى قلب أي مسلم.

أولًا: نصوص من كتاب الله عز وجل:

١- من تلك النصوص قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[1].

٢- وقوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[2].

٣- وقوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[3].

٤- وقوله: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[4].

---

(١) سورة القمر: ٤٩.

(٢) سورة الفرقان: ٢.

(٣) سورة الأعلى: ١-٣.

(٤) سورة الحديد: ٢٢.

ثانيًا: نصوص من السنة الشريفة:

١ - منها قول الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»[١].

٢- وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**»[٢].

٣- وقوله عليه الصلاة والسلام: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ اكْتُبْ، فَقَالَ مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»[٣].

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) أخرجه أبو داود.

يحتمل أن يوجد من ترفض عقولهم تأليف مسئولية الإنسان الأخروية مع عقيدة الإيمان بالقدر، تأبى بالرغم مما أسلفنا من الإيضاحات المهمة في هذا الموضوع.

فمن المحتمل أن يقولوا: إذا كان كل شيء من الله فالسعي والعمل أيضًا لا يكون بيد الإنسان ولا يفيد كونه أمارة لظهور القدر ولا يفيد أيضًا وقوع السعي والعمل باختيار الإنسان وإرادته بعد أن كانت إرادته واختياره أيضًا مربوطين بإرادة الله شعر به أو لم يشعر؛ فكيف يجعل الله العباد مسئولين ويناقشهم في أمور أتوها تحت تأثير خفي من إرادته؟!

أليس للإنسان- بعد أن لم يكن بيده شيء وكان مجرد واسطة لإنفاذ أحكام القدر- أن يقول: تجعلني يا رب فاعلًا وتسألني عنه؟!

هذه نقطة ينبغي التوقف عليها.

نقول: لقد قال الله تعالى لعباده: إنكم مسئولون عن أعمالكم.

قال ذلك ونحن نعلم أنه تعالى صادق فيما يقول، وأنه لا يجوز عليه الظلم، فهل يشك أحد في كون موقف العباد عنده تعالى موقف المسئولية؟

أم هل يكون لهم حق أن يقولوا: ما دمنا ليس بأيدينا شيء ونفعل كل ما نفعله تحت إشارة خفية من إرادة الله فكيف يناقشنا على ما نفعله بدافع من إرادته؟

وهل يملك العبد الذي لا يملك شيئًا ولا يصح أن يكون بيده شيء حق الاعتراض على خالقه؟!

إن الخطأ كله في قياس المعاملة بين الخالق والمخلوق بالمعاملات التي تجري بين الناس بعضهم مع بعض ووزنها بميزان الظلم والعدل المخصوص بمعاملاتهم؛ لأن المعاملات بين الخالق والمخلوق تابعة لقانون ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣ ﴾[1] فأصبح ملغى بهذا القانون جميع القوانين المتضمنة لطلب التعليل من العباد، وقد سمعتم فيما سبق الآيات والأحاديث الناطقة بعدم وجود أي شيء بيد الإنسان، وأن كل شيء يجري تحت مشيئة الله؛ فهذه إذن حقيقة لا تنكر.

ومع ذلك فإن كون موقف الإنسان موقف المسئولية وكونه لا يعذر إن عمل سوءًا ولا يظلم ربُه الذي يجزيه على حسب أعماله كون هذا حقيقةً ثابت أيضًا بدلالة الآيات والأحاديث وشهادة شاهد من نفس الإنسان.

---

(١) سورة الأنبياء آية: ٢٣.

المناقشة تكون بين متقاربين في المكانة أو صديقين أو أخوين، يمكن أن تناقش أي مخلوق في أي شيء لا ترضاه.

ولكن أنت عبد..والله تعالى مولاك..

هو من خلقك..أنعم عليك بكل شيء..

فلولاه لم تكن.. ولولا إمدادك بوجودك لم يكن لك وجود..

إن العبد في الدنيا لا يستطيع أن يناقش سيده، وما يفعله فيه السيد عدل كله لأنه هو سبب بقاءه الظاهر في الدنيا، ولو شاء لقتله أو باعه.

هذا في الدنيا بين المخلوقين، فكيف بين الخالق والمخلوق..

إن الخالق يفعل ما يشاء ولا يُسأل عن الذي يفعله لأنه هو المتحكم الوحيد في هذا الكون، فكل ما يفعله عدل وحكمة، لأنه يفعل فيما يملكه وهو تعالى يملك كل شيء، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه أو التصرف في ما لا تملك، ومعلوم أن الله تعالى يملك كل شيء فما يفعله من تصرف له كل الحق فيه.

إننا نقول القول الفصل: إن باب المجادلة والمناقشة بين المخلوق وخالقه مقفل من أوله إلى آخره؛ وسنفصل هذا الأمر في مبحث "العقيدة الصحيحة في مسألة أفعال العباد إن شاء الله تعالى".

والآن حان لنا أن نعرض عقيدة القضاء والقدر وأفعال العباد عرضًا أكثر وضوحًا وتحديدًا.

١ - تذكرة بالآراء السابقة:

سبق أن قلنا إنه قد صعب على غير الموفقين من الناس التوفيق بين كون الإنسان عاملًا لأفعاله مريدًا لها مختارًا فيها، مهيأً للثواب عليها إن كانت خيرًا، وللعقاب عليها إن كانت شرًّا، وبين كون الله تعالى هو خالقه وخالق أفعاله خيرها وشرها مع عدل الله وتنزيهه عن الظلم أيضًا.

ومن هنا انقسموا فرقًا فقالت فرقة منهم: «إن العبد هو خالق أفعاله بنفسه، وليس لله تعالى فيها دخل البتة» واعتذروا بكون أفعال الإنسان منها ما هو شر قبيح ومثله ينزه عن الله تعالى، ولا تجوز نسبته إليه، فالتزموا بناء على هذا بمبدأ نفي القدر عن أفعال العباد أي لم يعلمها الله أزلًا، ولم تكتب في الذكر: كتاب المقادير، ولزمهم في معتقدهم هذا أن يكون للكون غير خالق واحد، وهو رد صَريحٌ لقول الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[1]،

(١) سورة الأعراف آية: ٥٤.

وقولـه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1]، وقولـه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[2].

فكانوا بهذا مجوسًا، لإثباتهم خالقين مع الله تعالى في الكون، قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَـٰذِهِ الأُمَّـةِ، إِنْ مَرِضُـوا فَلَا تَعُودُوهُم، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُم**»[3].

وقالت فرقة أخرى (الجبرية) بعكس ما قالت الأولى (القدرية) فكانوا على النقيض معهم؛ إذ قالوا: إن العبد لا إرادة له في أفعاله ولا اختيار، فالعبد مجبور عليها غير مريد لها ولا اختيار له في فعلها وتركها، ولزمهم بذلك أن لا يكون في فعل العبد قبيح ولا حسن ، ولا خير ولا شر، وبالتالي فلا حساب عليها ولا عقاب، وبناء على مذهبهم هذا فإنه لم يبق من معنى لبعثة الرسل وإنزال الكتب، ووضع الشرائع، ومن هنا كان هذا المذهب (مذهب الجبر) أسوأ وأفسد من مذهب نفي القدر.

---

(١) سورة الصافات: ٩٦.

(٢) الأنعام: ١٠٢.

(٣) أخرجه أبو داود بسند حسن.

٢- أهل الإيمان الحق.

وهدى الله أهل الإيمان والتقوى إلى الحق الذي اختلفت فيه تلك الفرق فَضَلَّتْ عنه وجانبته وعاشت بعيدة عنه وهي ما بين مجوسية نافية لأقدار الله تعالى مثبتة باطلًا خالقين في العالم متعددين ولا خالق إلا الله سبحانه وتعالى، وبين جبرية معطلة للشرع منكرة للعقل.

هداهم وهدى الله أولياءه وهم أهل الإيمان والتقوى إلى الحق بإذنه فآمنوا بقضاء الله وقدره، وعدله ورحمته، وإرادته ومشيئته وحكمته، وحسن تدبيره، فقالوا: لا يتم إيمان عبد حتى يؤمن بقدر الله تعالى، ذلك القدر الذي هو سير نظام الحياة، وهو علم الله الأزلي وتقديره لكل شيء وكتابته في اللوح المحفوظ، فلا يزيد شيء عما كتب ولا ينقص؛ الأحداث الصغار التي تجري في الكون كالأحداث الكبار، والأعراض والصفات كالأجسام والذوات.

كل شيء منذ كان الكون أو سيكون إلى انقراض الكون قد جرى به العلم ومضى فيه التقدير وكتب في الذكر كل شيء.

روي عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَى العَجْزُ وَالْكَيْسُ»[1]، وقال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ»، وقالوا: يا رسول الله؛ أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ أَمَّا مَا كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾[2] الآية»[3].

آمن هؤلاء الموفقون بالقضاء والقدر والعدل والإرادة والمشيئة والحكمة، ولم يصعب عليهم كما صعب على غيرهم التوفيق بين كون فعل العبد قد قدره الله تعالى له وكتبه عليه وسبق به علمه قبل التقدير والقضاء، وكون العبد فاعلًا لفعله مريدًا له مختارًا في فعله وتركه، يحاسب به ويجزى عليه، ولا بين كون العبد فاعلًا لفعله وبين كون الله تعالى خالقًا للعبد وخالقًا لفعله، ولا بين كون الله تعالى يقضي على العبد ما شاء من قضاء ثم يأمره وينهاه ويجزيه بحسب عمله الذي قدره له وكتبه عليه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) سورة الليل: ٥-٦.

(٣) سبق تخريجه.

٣- ربط السعادة والشقاء بالأسباب.

فقالوا: إن الله تعالى لما قدر ما للعبد وما عليه من خير وشر وسعادة وشقاء قد قدره مربوطًا بأسبابه، فللخير أسبابه وللشر أسبابه كما قدر أن العبد يأتي تلك الأسباب ويعمل بها بإرادته التي قدرها الله له وخلقها فيه، والحجة في ذلك قول الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ العَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيُدْخِلَهُ بِهِ الجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ النَّارِ، فَيُدْخِلَهُ بِهِ النَّارَ**»[1].

ودلالته ظاهرة في أن الله تعالى إذا كتب على العبد أزلًا السعادة أو الشقاء كتب له كذلك أنه يعمل بالأسباب التي تسعد أو تشقى، فتتم السعادة أو الشقاء على أساس نظام الأسباب.

٤- نظام الكون العام دليل على العقيدة الصحيحة.

كما أن الاستدلال بنظام الكون العام له وجه أيضًا فإن الإنسان جزء من الكون كله، والكون جميعه مربوط بسنن وقوانين تحكمه إلى نهاية أجله فلِمَ لا يكون- إذًا- الإنسان كذلك، مبدؤه وسعيه ومصيره مربوط كذلك

---

(١) أخرجه مالك.

بسنن تحكمه لا يمكنه الخروج عنها بحال من الأحوال، وهي نظام القضاء والقدر، وما الفرق بين الإنسان والكون إلا أن الإنسان سيحاسب فلذا اختلف سعيه عن سعي غيره من سائر الخلق، ومن أجل هذا أعطي قدرًا زائدًا عن سائر الخلق وهو الإرادة والاختيار في سعيه فالكون من غير الإنسان يسعى مسعاه الذي قدر له لا يخرج عنه، لأنه لن يحاسب في سعيه إلى إحدى الغايتين أي الخير أو الشر، وإنما الغاية واحدة لا تتخلف فلذا لم يعط إرادة ولا اختيارًا، وكان بعكسه الإنسان الذي أعطي الإرادة والاختيار فتحمل بهما الأمانة بعد أن رفضها الكون كله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[1].

إن الإنسان مخلوق لله تعالى مربوب له كسائر الخلق، كالشمس والقمر والنبات والحيوان، يقوم بفعله كما تقوم سائر المخلوقات بما أناط بها ربها تعالى من أفعال تقوم بها، وإنما الفرق بين الإنسان وسائر الخلق أن الإنسان أعطي إرادة واختيارًا لعلة التكليف والجزاء عليه بخلاف غيره فإنه لا جزاء له على عمله الذي يقوم به، فيصل الإنسان إلى إحدى غايتيه بما أراد من عمل واختاره لنفسه بمحض إرادته واختياره.

---

(١) سورة الأحزاب آية: ٧٢.

ومن هنا لو أن العبد أُكره على عمل وأجبر عليه لم يترتب عليه حساب ولا جزاء بثواب أو عقاب، لأنه قد فقد الإرادة والاختيار التام.

قال بعض العلماء: إنما أضاف تعالى الأعمال إلينا لأننا محل الثواب والعقاب وهي لله حقيقة ولكن لما شهدنا الأعمال بارزة على أيدينا وادعيناها لنا أضافها تعالى إلينا بحسب دعوانا ابتلاءً منه لأجل الدعوى، ثم إذا كشف الله تعالى عن بصيرتنا رأينا الأفعال كلها لله تعالى ولم نر إلا حسنًا؛ فهو تعالى فاعل فينا ما نحن العاملون.

ثم مع هذا المشهد العظيم لابد من القيام بالأدب فما كان من حسن شرعًا أضفناه إليه خلقًا وإلينا محلًّا وما كان من سيئ أضفناه إلينا بإضافة الله تعالى فنكون حاكين قول الله تعالى؛ وحينئذ يرينا الله عز وجل وجه الحكمة في ذلك المسمى سوءًا فنراه حسنًا من حيث الحكمة فيبدل الله سيئاتنا حسنات تبديل حكم لا تبديل عين.

وبهذا تم لأولئك الموفقين التوفيق بين كون فعل العبد قد قضاه الله تعالى أزلًا على العبد، فهو فاعله لا محالة، وبين كون العبد مريدًا لفعله مختارًا له يثاب على حسنه ويعاقب على سيئه.

وقالوا: في كون العبد فاعلًا لفعله قائمًا به، والله خالقه وخالق فعله: إن الكون مخلوق لله تعالى وليس هناك من خالق غيره سبحانه وتعالى:

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[1]، والإنسان من جملة أجزاء الكون المخلوق فهو إذًا مخلوق والله خالقه وخالق الكون كله.

وهل المخلوق يخلق؟

اللهم لا.

إن الأفلاك تدور والكواكب تسير والشجر ينمو والحيوان يعمل عمله فيأكل ويشرب ويتوالد، فهل يُقال لهذه المخلوقات من الكون: إنها خالقة لأفعالها؟ أم الله هو الذي خلقها وخلق أفعالها؟

وإذا كان الجواب واحدًا وهو أن الله تعالى هو الذي خلقها وخلق أفعالها فبأي منطق نخرج أفعال العباد عن هذا الحكم العام والإنسان من جملة أجزاء الكون مربوط بنفس السنن التي تربط الكون؟

أم من أجل كون الإنسان مريدًا لأفعاله مختارًا لها، فإن ذلك منحه الله له دون سائر الخلق لعلةٍ أن يثاب على فعله أو يعاقب ولهذه العلة فقط، وليس بمخرجه عن كونه عبد الله مربوبًا، الله خالقه وخالق أفعاله، كما خلق غيره وخلق أفعاله من سائر المخلوقات في الأرض والسموات.

---

(١) سورة غافر: ٦٢.

٥- زيادة بيان واستدلال على العقيدة الصحيحة.

وبهذا تقررت هذه الحقيقة وثبتت ناصعة وهي أن الإنسان فاعل لأفعاله ليس خالقًا لها، والله خالق الإنسان وخالق أفعاله، ونزيد الأمر توضيحًا والحقيقة تقريرًا فنقول: أليس الإنسان ينطق ويسمع ويبصر ويعقل والله هو الذي جعله كذلك؟

أليس الإنسان يذهب ويجيء ويأخذ ويعطي، ويرفع ويضع، والله هو الذي أقدره على ذلك؟

أليس الإنسان يحب ويكره، ويريد ويشاء ويختار والله هو الذي هيأه لذلك؟

إذًا فما دام الله تعالى هو الذي جعله وأقدره وهيأه لكل أفعاله فهو خالقه وخالق أفعاله بلا جدل ولا نزاع، وكل ما في الأمر أن الإنسان مريد لأفعاله الإرادية مختار لها والله هو الذي جعله كذلك لعلة الابتلاء والجزاء...

وهنا يقال للذي لا تنتهي وساوسه في هذا الباب: يا عبدُ اخسأ، لا تعد قدرك! ولا تعترض على ربك، إنك تُسأل ولا يُسأل، خلقك ولم تخلقه، كنت به، وكان ولم تكن...

٦- الله تعالى قدر للعبد ما شاء من قدر أزلًا ثم هو يأمره وينهاه ويجزيه بحسب عمله.

قال العلماء: في كون الله تعالى قدَّر للعبد أزلًا ما شاء من قدر وقضى به عليه، ثم هو يأمره وينهاه ويجزيه بحسب استجابته لأمره ونهيه وعدمها- قالوا:

أولًا: الله يفعل ما يشاء.

إن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، له الملك وله الحمد، ولا يُسأل عما يفعل، وذلك لكمال علمه وعدله وحكمته ورحمته.

ثانيًا: فعل الله كله عدل وخير.

إن فعل الله وتقديره وحكمه كله عدل وخير، فليس في أفعال الله تعالى ولا تقديراته ولا أحكامه ظلم أو شر، قضى بهذا العقل وصح به النقل فهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[1]، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[2]، ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقرر هذه الحقيقة فيقول: «وَالخَيْرُ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ...».

إن الظلم والشر وإرادتهما لم تكن إلا من صفات المحدثين وسمات المخلوقين، أما ذو العرش المجيد الفعال لما يريد الغني فقد تنزه عن الظلم وفعل الشر، وكيف وهو الذي أمر بالعدل في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[3]، والناهي عن الظلم والمرغب في فعل الخير بقولـه:

(١) سورة النساء آية: ٤٠.

(٢) سورة فصلت آية: ٤٦.

(٣) سورة النحل آية: ٩٠.

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾[1]، والآمـــر بـــه في قولـــه: ﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2].

ثالثًا: ما هو الظلم، وما هو الشر؟

أليس الظلم من مفهوم كل العقلاء هو: «وضع الشيء في غـير موضـعه» وأن الشر هو: «كل فعل خلا من نفع أو زاد ضرره عن نفعه»؟

بلى...

إذًا فهل تعذيب عاص متمرد على ربه فاسق باختيـاره وإرادتـه عـن أمـر مولاه، عازم على مواصلة الفسق مـصمم عـلى المعـصية ولـو عـاش عمـرًا طويلًا لم يحدِّث نفسه بالتوبة ولم يردها وهو قادر عليها بما وهبه الله من قدرة وما منحه من إرادة.

فهل يا معشر العقلاء تعذيب هذا الإنسان يعد ظلمًا وشرًّا؟

اللهم لا...

(١) سورة البقرة آية: ١٩٧.

(٢) سورة الحج آية: ٧٧.

رابعًا: لله الحق المطلق في التصرف بعباده.

إنه بحكم ملكية الله تعالى للعباد بخلقه إياهم ورزقه لهم وتدبيره لأمورهم له الحق المطلق أن يتصرف فيهم بما شاء فلو عذبهم أجمعين لما كان ظالمًا لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا من أعمالهم، وبهذا صح الخبر؛ إذ روي عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «**لَوْ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَذَّبَ أَهْلَ السَّمَوَاتِ، وَأَهْلَ الأَرْضِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ**»(1).

خامسًا: الله تعالى خلق الأسباب وربطها بما قدر.

إن الله تعالى لما قدر مقادير العباد من عمر ورزق وسعادة وشقاء قدر ذلك مع موجباته وأسبابه، بحيث لا ينفك قدر مهما كان عن سببه- إلا أن يشاء الله- كما هي الحال بالنسبة إلى سائر أجزاء الكون فإن الكل مربوط بنظام السنن محكوم بقوانينها من أكبر جرم إلى أصغره كخلية النواة، ويشهد لهذه الحقيقة مثل قول الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ**

(1) أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند لا بأس به عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلَهَا»[1]، والشاهد من الحديث إثبات نظام الأسباب، فلما كان لدخول الجنة أسباب ولدخول النار أسباب، فإن العبد مهما عمل بخلاف أسباب سعادته أو شقائه فإنه لابد في النهاية أن يعمل مريدًا مختارًا بأسباب ما كتب له أو عليه في كتاب المقادير ليوافق علم الله وتقديره، وهو في نفس الوقت مريد مختار لم يُكره على ما فعل ولم يجبر على ترك ما ترك.

إن هذه الحقيقة مدهشة يجب الوقوف عندها والتفكير فيها.

إن أي عبد يدرك هذه الحقيقة إدراكًا صحيحًا سليمًا ويؤمن بها يتصدع أمام عظمة الله ويخر ساجدًا بين يديه.

وبيان هذه الحقيقة أن الله تبارك وتعالى قبل أن يخلق الكون بخمسين ألفًا من السنين علم أنه سيخلق في يوم كذا وتاريخ كذا في مكان كذا وكذا عبدًا اسمه كذا ووصفه كذا وكذا وعمله كذا، والذي سيختاره بمحض حريته هو كذا وكذا ليتحقق له به كذا وكذا من خير أو شر سعادة أو شقاء، وكتب كل ذلك في كتاب عنده، وفي نفس الوقت المعين والمكان المحدد يوجِد ذلك

(١) أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

العبد ويربيه إلى غاية بلوغه أشده وهو صحيح الحواس سليم العقل ثم تعرض له أمور متعددة وأحوال مختلفة فيختار منها ما يراه لنفسه وهو بعيد عن كل إكراه أو جبر، فيفعل الذي اختاره لنفسه بكامل إرادته واختياره ثم يجد نفسه بالتالي قد وافق ما كتب له في كتاب المقادير الأزلي القديم، ولم يخالفه في شيء ولم يخطئه في قليل أو كثير فسبحان من هذا علمه، وهذه قدرته.. سبحان الله العظيم، سبحان ذي العزة والجبروت والملك والملكوت والكبرياء والعظمة.

٧- مجمل القول فيما سبق.

استمع لهذه الكلمة المأثورة المعترف بها عند المسلمين من أهل السنة وهي: "آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى"، وهي تجمع رءوس عقائد الإسلام التي يهتم بها أهل السنة، وتشتمل على الإيمان بالقدر، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1]؛ ولهذا اتفق أئمة الهدى على تضليل منكر القدر الذي أدخله رسول الله ﷺ في حديث الإيمان ولعن منكريه في أحاديث أخرى قد ذكرناها فيما سبق.

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومجمل الأمر أن العقيدة الحقة في أفعال العباد أن العباد يفعلون بإرادتهم واختيارهم ما يريد الله أن يفعلوه ولا يحيدون عنه، فبالنظر إلى أنهم يفعلون ما يفعلون باختيارهم فهم مختارون، وبالنظر إلى أنهم لا يختارون إلا ما أراد الله أن يختاروه ولا يحيدون عنه فكأنهم مجبورون، وقد قال بعض أئمة الدين: **"لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين"**، وقال بعضهم: **"جبر وتفويض معًا"**، جبر يفترق عن الجبر لعدم مصادمته لإرادة المجبور، وتفويض يفترق عن التفويض لعدم اختيار المفوَّض إليه إلا ما أراده المفوِّض؛ فالإنسان يفعل ما يشاء، ولا يشاء إلا ما شاء الله أن يشاءه؛ فهو يفعل ما يشاء الله ويشاء هو نفسه معًا، فهناك تفويض لأنه يفعل ما يشاء وهناك جبر أو ما يشبهه لأنه لا يفعل غير ما يشاء الله.

وهذا، أي جمع الجبر مع التفويض والتسيير مع التخيير، من خواص قدرة الله تعالى لا يقدر عليه جبار غيره تعالى؛ فإن عد الإنسان بموقفه هذا مجبورًا في أفعاله فهو مجبور لكنه مجبور غير معذور.

وهذا المذهب بكِلا ركنيه يشتمل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ

عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾[1]، ففيه تبيان للمسألة المعنيِّ بتحقيقها في هذا الجزء من الكتاب.

فتلك الآية خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة الذي يُطمأن إليه بين المذاهب، وأي مذهب يفوته الاهتمام بمجموع الركنين ويقصر نظره على أحدهما فيخل بالآخر فهو مردود على أصحابه وأنصاره.

٨- قواعد عقيدة أهل السنة والجماعة في أفعال العباد.

ويمكن أن نقول إن هناك قواعد لعقيدة أهل السنة والجماعة في أفعال العباد، وهي:

١- لا جبر ولا نفي للقدر.

٢- الإنسان فاعل مختار.

٣- الله خالق الإنسان.

٤- وخالق أفعاله.

٥- الله تعالى هو الفاعل الحقيقي لكل شيء.

قال أهل العلم: إن الحق تعالى ما أضاف الفعل إلى العبد إلا لكونه تعالى هو الفاعل حقيقة من خلف حجاب جسم العبد فلم يكن الفعل إلا لله

---

(١) سورة النحل آية: ٩٣.

تعالى غير أن من عباد الله من أشهده ذلك ومنهم من لم يشهده ذلك، قال تعالى: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[1]؛ فالقسم الذي هداه هو الذي حفظه من دعوى الفعل لنفسه حقيقة، وأما القسم الذي لم تحق عليه الضلالة فهو الذي حار ولم يدر... وأما من حقت عليه الضلالة فهم القائلون بخلق الأفعال لهم".

٩- كلمة من جوامع الكلم في المسألة.

وأحب أن أذكر كلمة من جوامع الكلم في هذا المقام، وهي قول ابن قتيبة: "وعدل القول أن الله عدل لا يجور كيف خلق وكيف قدر وكيف أعطى وكيف منع، وأنه لا يخرج من قدرته شيء و لا يكون في ملكوته من السموات والأرض إلَّا ما أراد، وأنه لا دَيْنَ لأحد عليه ولا حق لأحد قبله؛ فإن أعطى فبفضل وإن منع فبعدل، وأن العباد يستطيعون ويعملون ويجزون بما يكسبون، وأن لله لطيفة يبتدئ بها من أراد ويتفضل بها على من أحب يوقعها في القلوب فيعود بها إلى طاعته ويمنعها من حقت عليه كلمته؛ فهذه جملة ما ينتهي إليه علم ابن آدم من قدر الله ﷻ وما سوى ذلك مخزون عنه".

---

(١) سورة النحل آية: ٣٦.

١٠ - الجوانب الروحية للعقيدة الصحيحة في أفعال العباد.

أ- الخضوع والخشوع لله تعالى.

ومن الجوانب الروحية في هذه العقيدة أن تعلم أن مقام الإحسان هو العمل على شهود الحق تعالى في حال العبادة، وفي ذلك تنبيه عجيب فإنه بتلك المشاهدة يبصر أن الفاعل هو الله تعالى لا هو فإن العبد إنما هو محل لظهور العمل لا غير، فيكون العبد وهو في عبادته لله تعالى عالمًا أن الله تعالى هو الموفق له إلى الطاعة وليس له أي فضل في ذلك.

ب- ذوق حلاوة الإيمان.

إن مَن لم يرض بالله ربًّا لم يذق حلاوة الإيمان ولا يدرك مذاقه وإنما يكون إيمانه صورة لا روح فيها وظاهرًا لا باطن له ومرتسمًا لا حقيقة تحته، والقلوب السليمة من أمراض الغفلة تتنعم بملذوذات المعاني كما تتنعم النفوس بملذوذات الأطعمة، وإنما ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا لأنه لما رضي بالله ربًّا استسلم له وانقاد لحكمه وألقى قياده إليه خارجًا عن تدبيره واختياره إلى حسن تدبير الله واختياره؛ فوجد لذاذة العيش وراحة

التفويض، ولما رضي بالله ربًّا كان له الرضا من الله كما قال الله تعـــــــالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[1].

وإذا كان له الرضا من الله أوجد الله حلاوة ذلك ليعلم ما منَّ الله به عليه وليعلم إحسان الله إليه، ولا يكون الرضا بالله إلا مع الفهم ولا يكون الفهم إلا مع النور ولا يكون النور إلا مع الدنو ولا يكون الدنو إلا مع العناية فلما سبقت لهذا العبد العناية خرجت له العطايا من خزائن منن الله فلـما وصـلته أمداد الله وأنواره عوفي قلبه من الأمراض والأسـقام فكـان سـليم الإدراك فأدرك لذاذة الإيمان وحلاوته لصحة إدراكه ولسلامة ذوقه، ولو سقم قلبـه بالغفلة عن الله لم يدرك ذلك، فإن المحموم ربما وجد طعم السكر مرًّا وليس هو في نفس الأمر كذلك فإذا زالت أسقام القلوب أدركت الأشياء عـلى مـا هي عليه فتدرك حلاوة الإيمان ولذاذة الطاعة ومرارة القطيعة والمخالفة.



(١) سورة المجادلة آية: ٢٢.

بعض أدلة أهل السنة والجماعة على أن الله خالق فعل العبد

لمذهب أهل السنة والجماعة القائلين بأن أفعال الإنسان مخلوقة بقدرة الله وليس لقدرة الإنسان تأثير في صنعها وإيجادها أدلة من العقل والنقل:

أولًا: الأدلة العقلية:

منها:

١ - أن جميع الممكنات مستندة إلى الله تعالى بلا واسطة، وهذه قاعدة مقررة عند علماء الدين، ويدخل فيها أفعال العباد طبعًا.

٢ - لو كان الإنسان موجد أفعاله لزم أن يعلمها بتفاصيلها؛ لأن إيجاد الشيء بالقدرة والاختيار لا يكون إلا كذلك كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[1]، والحال أن من خطا خطوة في مشيه مثلًا لا يعلم- على حسب إسراعه أو إبطائه في حركته- عدد السكنات التي تخللتها[2] وليس هذا ذهولًا عن العلم مع كونه عالمًا بل لو سئل لم يعلم، وهذا في أظهر أفعاله، وأما إذا تأمل في حركات أعضائه في المشي والأخذ والبطش ونحو ذلك مما

---

(١) سورة الملك آية: ١٤.

(٢) والسرعة تحصل على قدر قلة السكنات التي تتخلل أجزاء الحركة والبطء على قدر كثرتها.

يحتاج إليه من تحريك العضلات وتمديد الأعصاب وغير ذلك فالأمر أظهـر وجهله به أجلى.

فإن قيل: إن من أراد أن يستعمل ماكينة صنعها غيره فلا يحتـاج إلا إلى معرفـة كيفية استعمالها دون أن يعلم كيفية حركات آلاتهـا عنـد الاسـتعمال ومواقفهـا في العمل، وعلى هذا القياس يجوز أن يـستعمل الإنـسان أعـضاءه عنـد أفعالـه ولا يعلم أفعال الأجهزة الداخلية لأعضائه بتفاصيلها حين الاستعمال.

قلنـا: اسـتعمال الإنـسان أعـضاءه وجوارحـه لا يـشبه اسـتعمال الـسائق سيارته، ويدل على وجود الفرق بينهما أن للإنسان علمًا باسـتعمال أعـضائه في تنوع حركاته غير المحدودة من غير تعلم قدر ما عند سائق السيارة من العلـم بسوقها الحاصل بالتعلم والتدرب، ومع هذا فهو يـستعمل أعـضاءه بمهـارة وسهولة أكثر من مهارة سائق السيارة وسهولة سوقه إياها؛ فإذا أُمعن في أمـر التشبيه فالإنسان يشبه السيارة نفسها لا سائقها؛ أعني أنـه ذاهـل عـن كيفيـة حركاته مثلها، ومع ذلك يُرى أنـه يملكهـا فـوق مـا يملـك الـسائق المـتعلم حركات سيارته؛ فدل ذلك على أن المحرك غير المتحـرك، ولا نريـد أن يُفهـم الجبر المحض مـن هـذا التـشبيه؛ لأن في الإنـسان إرادة واختيـارًا في حركاتـه ليستا في السيارة؛ ففيه إرادة السائق وجهل السيارة.

ثانيًا: الأدلة النقلية:

منها:

١- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾[1].

٢- وقولــه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[2] يدل دلالة صريحة على أنه خالقهم وخالق أفعالهم.

٣- وقوله تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾[3].

٤- وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾[4].

فالـصراحة الواقعـة في قولـه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾، وقولـه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾، وقولـه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ ترد ما ذهب إليه نفاة القدر صراحة، فكيـف يكـون الإنـسان تجاه هذه الآيات خالق أفعالـه أي موجـدها، والخلـق والإيجـاد سـواء، وفي مذهبهم نوع مـن الإشراك بـالله تعـالى، ولا يعتـذر عـنهم بـأي عـذر؛ لأن

---

(١) سورة الزمر آية: ٢.

(٢) سورة الصافات آية: ٩٢.

(٣) سورة فاطر آية: ٣.

(٤) سورة الأعراف آية: ٥٤.

الآيات المذكورة تنفي الإشراك بالله في الخالقية، وتنطق بأنه لا شريك له فيها أيضًا، وإن كان هذا النوع من الإشراك يعد دون الكفر.

٥- وقوله ﷺ: «مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»[1] المؤيد بإجماع العلماء عليه صريح في حصول كل شيء بإرادة الله وعدم الكيان لأي شيء لم تتعلق به إرادة الله.

* * *

(١) أخرج أبو داود والنسائي في الكبرى أن عبد الحميد مولى بني هاشم حدثه أن أمه حدثته- وكانت تخدم بعض بنات النبي ﷺ- أن ابنة النبي ﷺ حدثتها أن النبي ﷺ كان يعلمها فيقول: «قُولِي حِينَ تُصْبِحِينَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ فَإِنَّهُ مَنْ قَالَهُنَّ حِينَ يُصْبِحُ حُفِظَ حَتَّى يُمْسِيَ وَمَنْ قَالَهُنَّ حِينَ يُمْسِي حُفِظَ حَتَّى يُصْبِحَ».

الفرق بين مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب الجبرية

قد يظن البعض أن مذهب أهل السنة والجماعة يشبه مذهب الجبرية الذين سبق وتحدثنا عنهم فيما قبل، ولذلك سأنقل الآن كلام شيخ الإسلام مصطفى صبري رحمه الله تعالى في الفرق بين مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب الجبرية مع بعض التبسيط وتغيير العبارات التي تبدو معقدة فإن كلامه رحمة الله عليه كافٍ شافٍ:

"تلخيص ما يفترق به مذهب الأشاعرة عن مذهب الجبر أن الجبرية لا قدرة عندهم للإنسان ولا إرادة حتى ولا فعل، وعند أهل السنة له قدرة لكن لا تأثير لقدرته في جنب قدرة الله، وله أفعال والله خالقها، وله إرادة أيضًا تستند أفعاله إليها؛ ولذا يعد مختارًا في أفعاله، ويكفي فيه وفي تسمية أفعاله أفعالًا اختيارية استناد تلك الأفعال إلى إرادته واختياره، لكن هذه الإرادة والاختيار عند أهل السنة ليست من الإنسان بل حاصلة بخلق الله، ولذا يقال إنه على مذهبهم **"مختارٌ في أفعاله مضطرٌ في اختياره"**.

وبالنظر إلى أن فعله وإرادته لفعله مخلوقان لله تعالى لزم أن يكون الإنسان مضطرًّا فيهما جميعًا، إلا أن استناد فعله إلى الاختيار وعدم استناد اختياره إلى اختيار آخر سبَّبَ وصف الأفعال بالاختيارية، وهو

المعنيُّ بكون الإنسان مختارًا في أفعاله عند أهل السنة والجماعة؛ أي أن أفعاله مستندة إلى اختياره وإن لم يكن هذا الاختيار بيده، واستناد أفعاله إلى اختياره يكون مصحح النسبة في تعبير "الأفعال الاختيارية".

وأما لزوم كون الأفعال المستندة إلى الاختيار الاضطراري اضطرارية فاضطرار بالواسطة؛ أعني أن الأفعال نفسها اختيارية وإنما يسري الاضطرار إليها بواسطة كون الاختيار الذي تستند إليه اضطراريًّا، ومن هذا سموا مذهب أهل السنة والجماعة بالجبر المتوسط أي الجبر بالواسطة وليس معناه الجبر المعتدل أو الجبر الناقص بل الجبر التام لكنه بالواسطة؛ هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقام[1]".



(١) قال الشيخ مصطفى صبري: "ومما يجب أن ينبه عليه أنه لا يلزم من انتهاء مذهب أهل السنة والجماعة إلى الجبر كونه مذهب الجبر، بل مذهبه مفترق عن مذهب الجبر جدًّا".

بعض الآيات التي يتوهم أنها معارضة لعقيدة القضاء والقدر وخلق أفعال العباد.

قد يظن أن تلك الآيات التي تنسب خلق كل شيء لله تعالى تُعارض بما ورد في القرآن الحكيم أيضًا من ذم من أحال ضلالته على مشيئة الله، والحق أنه لا تعارض ولا اختلاف بين آيات القرآن الكريم؛ لأنه عند التفكر وسؤال أهل العلم يزول هذا التوهم ويتضح أن آيات القرآن متفقة وليست مختلفة.

وسنذكر بعض هذه الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾.

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام آية: ١٤٨، ١٤٩.

إن هاتين الآيتين تعرضان شبهة دائمًا ما أثارها من يريد أن يتبرأ من الشرك، بل كل من يريد أن يتبرأ من معصية أو إثم أو منكر فإنه دائمًا ما يدعي هذه الشبهة.

إنهم يقولون عندما يصرون على فسوقهم وكفرهم: هذا أمر الله وهذا قضاؤه وقدره وتلك مشيئته وإرادته، ولو شاء الله عدم كفرنا أو فسوقنا لما فعلنا ذلك وإذا كان الله تعالى قد قضى علينا بالشرك أو بارتكاب ما نهي عنه فما ذنبنا؟ ولماذا يعاقبنا عليها؟

إن المشركين ما ذُمُّوا في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ لأنهم كذَبوا في تلك القضية بل لأنهم أرادوا بذاك القول تكذيب الرسل الذين منعوهم من الشرك وتحريمِ ما أحل الله بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ والدليل على ذلك أنه تعالى تعقبهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فذمهم على تكذيبهم لا على كذبهم في قولهم.

والدليل الثاني– وهو أبلغ وأقوى– تعقبهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فقال بلسان رسوله أيضًا– لا بلسانهم فحسب– أن لو شاء الله لهداهم أجمعين، وساق هذا القول مساق عكس حجتهم عليهم، وكأن المشركين قالوه لا عن إقرار بمضمونه وخضوع لمشيئة الله وإنما تهكموا على الرسل فأعاد الله حجتهم عليهم؛ وكأنه قال: نعم، لو شاء الله لهداكم فما

أشركتم لكنه لم يشأ هدايتكم وشاء ضلالكم؛ فلهذا لا تتوقفون عن الشرك وتستهزئون بالرسل الذين منعوكم منه؛ وللدلالة على هذا المعنى قال: ﴿ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ ﴾.

ويحتمل أن يكون ذمهم بذلك القول لأنهم احتجوا بالقدر وأرادوا به التبرؤ من تبعة الشرك، والاحتجاج بالقدر باطل إن أريد به التذرع إلى دفع المسئولية عن نفس المكلف؛ لأن ذلك يؤدي إلى إفحام الأنبياء صلوات الله عليهم، وإنَّا مع السعي البليغ لإثبات القدر ووجوب الإيمان به لا نرضى الاحتجاج به قط؛ وقد عرفت أن خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة القضاء والقدر قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ فنحن نجمع وجوب الاعتراف بمسئولية العباد إلى وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى؛ بمعنى أن لمشيئة الله السلطة العامة على كل شيء وكل مشيئة للعباد كلية وجزئية لا نبخس كلًّا من الواجبين حقه، وبفضل ذلك لا تصادمنا آية في كتاب الله ولا حديث من أحاديث رسول الله.

فقول المشركين: ﴿ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا ﴾ لم يكن إيمانًا منهم بالقدر ولو كان كذلك لكان حقًّا ولم يتوجه إليهم الذم بهذا القول؛ لكنهم ظنوا أن القدر - إن كان حقًّا - يدفع عنهم المسئولية فأرادوا أن يتخذوه حماية من غير إيمان به ومن

غير علم بحقيقة القدر الذي لا يدفع المسئولية عن المكلف؛ ولـذا قـال الله تعـالى في الرد علـيهم: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾.

ومثله قولـه تعـالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[1] فالآية ترد عليهم لا لإيمانهم بالقدر كـما يتـوهم بـل لعـدم إيمانهم به وعدم علمهم بأن الإيـمان بـه لا يمنـع التكليـف، فهـي تعيـب علـيهم جهلهم بعد معابة إنكار القدر، وكلا الأمرين اللذين عيب بهما المشركون في الآيـة يعاب به كل من أنكر القدر من أصحاب المذاهب.

٣- قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾.

ومثله أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة الزخرف آية: ٢٠.

(٢) سورة النحل آية: ٣٥.

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾.

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾[1].

قال الجمل في حاشيته على تفسير الجلالين عند تفسيره لهذه الآية:

فإن قلت: كيف وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾[2] وبين قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾[3].

فأضاف سبحانه السيئة إلى فعل العبد في هذه الآية بينما أضاف الكل إلى الله في الآية السابقة؟

قلت: أما إضافة الأشياء كلها إلى الله تعالى في الآية السابقة في قوله: **"قل كل من عند الله"** فعلى الحقيقة لأن الله تعالى هو خالقها وموجدها وأما إضافة السيئة إلى فعل العبد في قوله تعالى: **"وما أصابك من سيئة فمن نفسك"** فعلى سبيل المجاز.

والتقدير: وما أصابك من سيئة فمن أجلها وبسبب اقترافها الذنوب وهذا لا ينافي أن خلقها من الله تعالى.

---

(١) سورة الشورى آية: ٣٠.

(٢) سورة النساء آية: ٧٨.

(٣) سورة النساء آية: ٧٩.

طائفة الجبرية المعدودة من الفرق الضالة الإسلامية كما يُرَدُّ مذهبهم عند العقل لقولهم بعدم وجود القدرة والإرادة في الإنسان، فإن جمع إلى ذلك عدم مسئوليته يكون مردودًا عند الشرع أيضًا بل يليق بالإكفار لمخالفة نص القرآن.

فالإيمان بأن الله خالق أفعال العباد الذي بيناه في هذا الكتاب مشروط بالمحافظة على أساس المسئولية التي هي عبارة عن لياقة الإنسان بما يلقاه في الدنيا والآخرة من جزاء عمله.

فإن قيل: كيف تجتمع المسئولية مع المجبورية، رغم أنه يلزم أن يكون المجبور على شيء غير مسئول عنه؟

قلنا: أهل السنة والجماعة لم يقولوا بأنه يلزم أن يكون المجبور على شيء غير مسئول عنه؛ لأن قولهم بكون الإنسان لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا خيرًا ولا شرًّا ويكون مع ذلك مسئولًا عند الله لم يقولوا به بدون دليل، وإنما قالوا بكِلا الأمرين معًا بدافع الأدلة العقلية والنقلية؛ فخلاصة مذهبهم في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن

﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾[1]؛ فـنحن نقول مع نص القرآن: إن الله يضل من يشاء ويهدي مـن يـشاء؛ فخـير كـل إنسان وشره متعلقان بمشيئة الله وليس بيده شيء، ومـع هـذا فهـو مـسئول عن عمله، ولم يكن الله ليظلمه في تحميل هذه المسئولية، وكيف نعزو الظلـم إلى الله مع كوننا نحن لا نتردد في مجازات من نتـولى أمـورهم في الـدنيا عـلى حسب أعمالهم؛ أعني أن حكمنا بتنزيه الله الذي يجزي النـاس عـلى حـسب أعمالهم عن أن يظلمهم طبيعي جدًّا لأنا نجد كونهم مـسئولين عـن أفعـالهم ومجزيين بها حقًّا في أنفـسنا أيـضًا وإن احتكمـوا إلينـا في الـدنيا لم نـتردد في مجازاتهم بأعمالهم.

فقد رأيت أن المجبورية والمسئولية اللتـين جمعهـا أهـل الـسنة والجماعـة في مذهبهم مجتمعتان في الآية؛ فهي تنطق بأن الله يضل من يشاء ويهدي من يـشاء؛ ومع ذلك فالعباد الذين يضل بعضهم بمـشيئة الله ويهتـدي بعـضهم بمـشيئته مسئولون عما كانوا يعملون؛ تنطق بهذين الأمرين بصراحة لا تقبل الـتأويل.

فلا يقال: إذن كيف يكون كذلك وكذلك معًا؟

فنحن نقول: لا يلـزم ألا يقـع اجـتماع الأمـرين لكـون عقلـك لا يفهـم جمعهما، ثم إن قولنا باجتماع المجبورية والمسئولية لم يكن بمجرد احـترام منـا

---

(١) سورة النحل آية: ٩٣.

لنص القرآن بل لأن الحال كذلك في نفس الأمر أيضًا، فإذا تفكرتم تصلون إلى أن حركات الإنسان تدبرها قوة سامية، وقد أوضحناه فيما سبق بما لا مزيد عليه، ومع هذا فإنكم عند أول ما تراجعون أنفسكم تشهدون أن كلًّا منكم فاعل مختار حقيق أن يكون مسئولًا عما يفعل وترون قوانين الدنيا تعامل الناس معاملة المسئول؛ فتجدونه طبيعيًّا جدًّا؛ فثبت أن كون العباد مجبورين وعدم كونهم معذورين كلاهما حق وواقع.

وخلاصة القول: أن الموقف الذي يراه الإنسان لنفسه ويحس به بالبداهة هو أنه مختار؛ فهذا الحال الذي يشترك فيه كل أحد وكل ذي مذهب وعقيدة كافٍ في صحة كون الإنسان مكلفًا بتكاليف دنيوية وأخروية، ونصوص القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1]، وقوله: ﴿ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴾[2] ، ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾[3]، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

(١) سورة التوبة آية: ١٠٥

(٢) سورة الصافات آية: ٦١

(٣) سورة الزمر آية: ٧٤

أَجْرَهُم.... ﴾[1]، ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾[2]، ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾[3]، ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[4]، ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[5]، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾[6] تفيد قطعًا أنه مكلف بأعمال ومجزي بعمله في الدنيا والآخرة.

أما الآيات التي ذكرناها من قبل مؤيدات لمذهب أهل السنة والتي يطول تكرارها هنا ولا نرضى أن يكون القارئ قد نسيها في مقابلة هذه الآيات، وأما أن أحدنا إذا فعل فعلًا فماذا يفكر حتى يفعل ومِمَّ يأتي له ذلك الفكر ولماذا تحركك الفكرة نفسها ولا تحركني؟

فمتى يفكر الإنسان في هذه النقاط وفي تلك الآيات يظهر من تحتها الجبر، الجبر الذي يغلب المختارية إلا أنه مهما كان غالبًا فهذا الجانب

---

(١) سورة النحل آية: ٩٧

(٢) سورة الكهف آية: ٤٩.

(٣) سورة الزمر آية: ٧٠.

(٤) سورة الأعراف آية: ١٨٠.

(٥) سورة النحل آية: ٣٤.

(٦) سورة النجم آية: ٣٩- ٤١.

خفي وجانب المختارية ظاهر فلا يخل بكون الإنسان مكلفًا وهذا علاقته بالأحوال الظاهرة أكثر وأقوى ويبقى نظم الدنيا والآخرة وقوانينها محفوظة.

أكرر تأكيدي بأن الإنسان مهما كانت عقيدته في مسألة أفعال العباد بدافع العقل والنقل فليس له أن يرى نفسه خارجًا عن دائرة المسئولية، ولا يستطيع أحد أن يدعي سقوط التكليف حتى من أهل الجبر المحض.

والذي لا شك فيه قطعًا أن كون كل شيء من الله وكون العباد مسئولين عن أعمالهم كل منهما حق، وقد أثبتناه في هذا الكتاب؛ فإن بقيت شبهة في ائتلافهما فيجب دفعها بالتأمل في أن كلًّا من الحقيقتين لابد أن تأتلفا، فيجب الاعتراف بنقطة التأليف بين الأمرين أو الاعتراف بعجز إدراك البشر عندها، فما من أحد اطلع على سر القدر وما دراه فلا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا هو الأحسن والأحوط.

أما العدول عن هذه الطريقة الوسطى بإنكار سلطة الله على أفعال العباد فيكون تضحية بإحدى الحقيقتين لتأييد الأخرى وفيها خطأ علمي وعجز أشد خطرًا من الاعتراف بكلتا الحقيقتين ثم إظهار العجز عن التأليف بينهما.

ففي مسألة القضاء والقدر أمران وثالث هو التوفيق بينهما.

فالأول: عموم سلطة الله على جميع ما كان وما يكون وإحاطة إرادته به فلا يقع في الكون إلا ما يشاء.

والثاني: كون العباد- الذين لا يخرجون هم وأفعالهم عن سلطة إرادة الله بحكم القضية الأولى- مكلفين بالشرائع ومسئولين عن أعمالهم.

والثالث: أي التوفيق بين القضيتين، وهو يرى في غاية الإشكال، وروح مسألة القضاء والقدر في هذا التوفيق؛ فإن لم يستطع أحد الجمع بين القضيتين في العقل يلزم الجمع بينهما في الاعتقاد؛ ولذا صارت هذه المسألة أشد المسائل إشكالًا.

وأي مذهب يشعر ببساطة الأمر ويسهله على الفهم فهو أبعد عن الحقيقة لعدم تناسبه مع طبيعة المسألة فهي من المسائل التي لا يعلمها إلا الله وأي دعوى من إنسان بأنه علم هذا السر فهي دعوى مردودة، وكون مذهب أهل السنة والجماعة يضرب به المثل في الخفاء فهذا ميزة لمذهبهم بالرغم من الذين عابوه به؛ فهو يراعي حق القضية الأولى ويقول بإحاطة إرادة الله حتى لا يخرج عنها أفعال العباد وإرادتهم، ويراعي القضية الثانية لقوله باختيارهم في أفعالهم، أما كون اختيارهم حاصلًا بخلق الله وإرادته وعدم كونهم مختارين في هذا الاختيار وكون كسبهم بهذا السبب مضروبًا به

المثل في الخفاء فكله مما تقتضيه القضية الأولى المسلمة وصعوبة توفيقها مع القضية الثانية، ولا ذنب لأهل السنة فيه.

فمذهب أهل السنة عبارة عن الاعتصام التام بالقضيتين كلتيهما، ثم الاجتهاد في التأليف بينهما بقدر الطاقة.

قال الشيخ محمد عبده: "أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار فهو من طلب سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه".

ولئن عجزنا نحن عن التأليف بين كون العباد في أفعالهم مجبورين على اتباع مشيئة الله وبين كونهم مكلفين ومسئولين المستلزم لكونهم مختارين فالله غير عاجز عنه، فما دام يقول- وقوله الحق وله الملك: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[1]، و﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾[2]، و﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[3]، ويقول

---

(١) سورة النساء آية: ٧٨.

(٢) سورة آل عمران آية: ١٥٤.

(٣) سورة الإنسان آية: ٣٠.

أيضًا: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]؛ فلماذا لا يكون كلاهما حقًّا بل ثانيهما فقط أي كونهم مسئولين؛ بحجة أن عقولنا القاصرة لا تؤلف بينهما.

بل كل من القضيتين حق أولًا لأن كليهما أخبر به الله تعالى بصراحة مؤكدة لا تقبل التأويل.

وثانيًا: لأن الأنسب بإحاطة ملكوت الله بالكائنات وأكمليتها كون إرادته فحسب حاكمة في ملكه كما أخبر به في كتابه، ومهما أعطى عباده الإرادة فلا ينبغي أن تكون إرادته تابعة لإرادتهم بل تكون إرادتهم تابعة لإرادته؛ أي ينبغي ألا يكون الإنسان حبله على غاربه إلى يوم يسأل؛ لأن المالك الذي لا يقبل الشركة في ملكه لا يتنازل عن التصرف فيه إلى غيره ولو وقتيًّا، وهو مخل بكونه مهيمنًا عليه[2].

فليعط الإنسان الإرادة وليفعل هو بهذه الإرادة ما يشاء إلى يوم الحساب، ولتكن إرادة الله تابعة لإرادته فهذا التفويض وإن كان من الله وبإذن الله فهو كثير في حق الإنسان ومعناه انفكاك روابط حادثات كثيرة في العالم عن الله؛ إذ لا أهمية لارتباطها بالإرادة الإلهية التابعة في جنب الإرادة

(١) سورة النحل آية: ٩٣.

(٢) ولذا روي عن النبي ﷺ: «القَدَرُ نِظَامُ التَّوحِيدِ»، وقال أهل الحق: "لا جبر ولا تفويض...".

البشرية المتبوعة، وإن كان الله قد خلق نفس الإنسان الذي تحكم إرادته في الحادثات المذكورة لكونها متبوعة فما خلقه شريكًا له.

ولكون الإسلام قد أعطى هذه النقطة عظيم اهتمامه وضع دستور «مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»، والعقل السليم يدركه بقدر ما أدرك موقف الإنسان من المسئولية.

نعم، في مقابلة ما ذكرنا من الدستور الإسلامي- أعني قول النبي عليه السلام: «مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ» وما يوازيه من نص القرآن، مثل: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾[1]، و﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[2]- نصوصٌ أخر؛ مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[3]، ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾[4]، ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾[5]؛ فهذه الآيات تبلغنا كون مسئولية الإنسان عن أعماله حقًّا

---

(١) سورة آل عمران آية: ١٥٤.

(٢) سورة النساء آية: ٧٨.

(٣) سورة الشورى آية: ٣٠.

(٤) سورة الروم آية: ٤١.

(٥) سورة آل عمران آية: ١٦٥.

ونحن نشهد أن الإنسان في موقع المسئولية فهذا هو ما بلّغنا به الله تعالى؛ إلا أننا مع شهادتنا هذه وإيماننا ذاك إذا بحثنا واستقصينا في مبادئ أعمال الإنسان المنبعثة عن نفسه ثبت أنها أيضًا من الله.

وهل ترى أن الله الذي ربط المسببات بالأسباب يترك التوسل بها لعباده، أم أنه الذي يهدي من يشاء منهم إلى التوسل بالأسباب ويضل من يشاء عنه؟

بل يجعل لسببٍ مسببات مختلفة بالنسبة إلى أناس مختلفين؛ أي لا يسوي في حق كل أحد بعد التوسل بالسبب بين نتائجه.

وعلى ذلك لا يلزم من كون الله خالقًا لجميع أفعال خلقه أن يكونوا مجبورين وغير مطالبين بالسعي في طلب الخير ودفع الشر وغير مستحقين للثواب والعقاب فإن الله تعالى وهب للإنسان مدارك وقوى وبين له طرق الخير والشر، وأمره بالسعي في طلب الأول وتجنب الثاني، وجعل العقل قائده فهو يسعى في مصالحه بإرادته واختياره وقدرته وعقله فيكسب ما أراده واختاره والله يجازيه على سعيه وكسبه، وإن كانت قدرته تحيط بجميع الكائنات وهي مرجعها، فإذا حالت بين الإنسان وفعله استمد المعونة من خالقه واستعان به ولم ييأس، ولا يزال يسعى بجد واجتهاد وراء الخير كما أمر به ويكافح الشر ويخوض غمار الموت معتقدًا أن ما أصابه لم يكن ليخطئه

وما أخطأه لم يكن ليصيبه ولو اجتهد الخلق أن ينفعـوه بـها لم يكتبـه الله لـه لم يقدروا عليه، ولو اجتهدوا أن يضروه بها لم يقتضه الله عليه لم يقدروا.

ولا يخفي على العاقل أن هذه العقيدة تورث قـوة وشـجاعة وكياسـة، وبها ساد المسلمون في الصدر الأول.

* * *

من هو الإنسان؟ وما هي وظيفته؟

وفي الختام أنقل لك كلام الشيخ البوطي تحت هذا العنوان فإنه خير ما يختم به الكتاب، قال الشيخ:

١ - من هو الإنسان؟

إن سيادة القدر في الكون ليست إلى الإنسان، مهما أوتيَ من قوة، ومهما بلغ علمه، وفي أي عصر أو مكان وجد- فمن عسى أن يكون الإنسان إذًا؟.. وما هو المركز الذي يتبوؤه في خضم هذا الكون.

والجواب أن الإنسان هو ذلك الحيوان المعقد العجيب الذي لم يفهم العلم منه إلا أنه جملة هيكل وعضلات وأعضاء وأنسجة وسوائل وشعور. غير أن العلم أدرك رغم هذا أن الإنسان ليس مجرد هذه الكتلة؛ وإنما هو حقيقة خفية أخرى تكمن وراء هذه الأمشاج!.

إنه تلك العلاقة الخفية المجهولة بين المخ والشعور.

وهو تلك الصلة المبهمة بين أعضاء من جهة ووجوه النشاط العقلي والروحي من جهة أخرى.

وهو ذلك السر الغامض العجيب الذي يغشى الجملة العصبية فنسميه الإرادة.

وهذا يعني أن الإنسان منفعل في ذاته أكثر من أن يكون فاعلًا.

أي أنه، حتى وهو يمارس التعلم ويسعى وراء الاكتشاف وينبش عن مكنونات الأرض، متأثر أكثر من أن يكون مؤثرًا؛ لأنه لا يمارس شيئًا من هذا بتخطيط منه لجوهر الممارسة.

وحسبك لتفهم ما أقول أن تلاحظ أنه لا يعلم شيئًا عن كنه ذاته.

إنه يتعلم، ولكنه لا يدلك كيف تعلم!..

وإنه يقرر ويريد، ولكنه لا يفهم إطلاقًا كيف انبعثت الإرادة من كيانه وكيف عزم وقرر!..

يفرح، ولا يعلم كيف فرح.

ثم يحزن، ولا يدري كيف حزن!!..

تجده عاكفًا على موضوع علمي عويص، ينبش دخائله ويحلل عناصره بذهن متفتح وقاد.

وفي لحظة واحدة تختفي منه هذه الذات.. ويفجؤك منه هيكل بارد جامد وقد انخطفت منه السيما التي كانت تؤنسك، والذات العجيبة الفياضة التي كانت تناجيك وتحسّ بك.

فكأنه- وهو لا يزال هو بلحمه وعظمه وهيكله- شيء آخر غير ذاك الذي كان يقف أمامك قبل قليل!..

حقًّا إن الإنسان منفعل في حياته أكثر من أن يكون مؤثرًا، حتى وهو يشتد صاعدًا في مراقي العلم والحضارة والفكر...

ألا إن الإنسان عبد مملوك لله عز وجل، أبدعه كما شاء، ورقاه في درجات العلم والدراية والقوة، إلى أن سُخر له أكثر ما حوله من مظاهر الكون، وانبسط له عليها عرش من السيادة والسلطان؛ ثم نكسه الله تنكيسًا وأعاده إلى حيث انطلق به، فركبه الضعف بعد قوة، وغشيه النسيان بعد علم، وانطفأت شعلة حياته بعد طول التماع.

والمآل كله بعد ذلك إلى الله.

وإن العاقل الحر ليخر ساجدًا لعظمة البيان الإلهي الذي يعبر عن هذا كله بهذه الكلمات: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[1].

وإنه ليتضاءل صغارًا أمام هذا التحدي الإلهي الثاني: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾[2].

وصدق الله العظيم إذ جمع الحقائق كلها في هذا الخطاب الجامع الموجز:

---

(١) سورة التين آية: ٤-٦.

(٢) سورة فاطر آية: ١٥-١٧.

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ... ﴾[1].

تلك هي حقيقة الإنسان، انتهينا من بيانها وعرض الأدلة عليها، وإنها لمستغنية عن البيان بذاتها، ناطقة في كيان كل فرد من الناس بالتعريف بنفسها، ولكن ما أكثر ما يحتاج الإنسان في هذه الحياة إلى إيضاح الواضحات وشرح البدهيات.

٢- ما وظيفة الإنسان؟

أما الآن، فما هي وظيفة الإنسان؟

إن وظيفة الإنسان هي ممارسة العبودية لله تعالى بالسلوك والاختيار كما قد فطره عليها بالقهر والإجبار.

وهذه الحقيقة لا تحتاج إلى فلسفة ومزيد شرح وبيان.

فإن العبد المملوك الذي لا يملك من أمر نفسه شيئًا، ولا يأتيه الرغد من العيش والنصب من البلاء إلا من قبل سيده المالك لرقبته- ينبغي أن يكون سعيه كله من أجل الحصول على مرضاة سيده هذا.

ومعاذ الله أن يكون في الكون كله مالك حقيقي غير من بيده مقاليد السموات والأرض الملك الواحد القهار.

---

(١)سورة آل عمران آية: ١٢٨.

وكيف يمارس العبد عبوديته لله عز وجل؟.

أولًا: ينبه جميع مداركه إلى أنه مملوك لله عز وجل، وأن ليس تحت يده من نعمة يتمتع بها إلا وهي وديعة من الله تعالى عنده، يُمتَّع بها إلى حين ثم تستلب منه عند أجل معلوم، وأن جميع الأساليب جعلية، قرنها الله تعالى بما شاء من النتائج والآثار، فظهرت رابطة أمامنا في مظهر السببية المطلقة.

ثانيًا: يسخر جميع النعم والقدرات التي منحه الله إياها لتحقيق المبادئ والأهداف التي أمره الله تعالى بالسعي إليها.

وقد أرسل الله تعالى إلى عباده لائحة البيانات لهذه المبادئ مع أنبيائه ورسله الذين ختموا ببعثة آخر الأنبياء والرسل محمد عليه الصلاة والسلام، وليس في هذا المجال متسع لشرح شيء عن هذه البيانات وما تتضمنه من المبادئ والمناهج المرسومة لسلوك الفرد والمجتمع، فإن لشرح ذلك مجالات أخرى ومراجع خاصة.

ثالثًا: لا ينسى، وهو يسير في رحلة حياته الدنيا ويتقلب بين خيرها وشرها، أن هذه الحياة ليست إلا مرحلة، وما هي إلا جسر منصوب بين ماضٍ من العدم المطلق، وآت من الحياة الخالدة بتخليد الله تعالى وقضائه، فما ينبغي أن يغتر منها بظل ظليل، فيميل إليه ويستوطن فيه، وينسى منهج

الرحلة ونظامها؛ فإن الوقت إذا تداركه أيقظه دون أن يرحمه وخلَّف له الحسرة والندامة فقط، وليذكر، ليتأكد مما أقول، بيان الله عز وجل:

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ[1] نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

فإذا أيقن ذلك، فليعلم أن عليه أن يجند كل عمله وطاقاته وملكاته، ليعتصر من الدنيا أسبابًا يحقق بها المبادئ والقيم التي أمره الله تعالى أن يقيم المجتمع الإنساني على أساسها.

رابعًا: ما ينبغي أن يُخضع هذه الحقائق لتطوير أو تناسخ وتبديل، مهما تقدم العلم وكثرت المخترعات، وطار الإنسان في جنبات الفضاء؛ فإن محور هذه الحقائق ومناطها ثابت، ألا وهي عبودية الإنسان لله.

فإذا كان محورها باقيًا، فما ينبغي لأنظمتها الدائرة من حولها والمتسقة معها أن تتبدل أو تتطور.

---

(١) الكفار جمع كافر وهو الزارع.

(٢) سورة الحديد آية: ٢٠.

تلك هي المعالم الكبرى لوظيفة الإنسان في هذه الحياة، وإن من وراء ذلك تفاصيل ليس هنا محل بحثها.

ولن تجد أي منطق علمي يرد على شيء مما ذكرناه، أو يملك إدخال أي ريبة أو شك عليه؛ فالإنسان عبد الله عز وجل أيقن ذلك أو جحد به؛ والعبد يجب أن يتسق سلوكه مع طبيعة كونه عبدًا.

* * *

الخاتمة

نختم الكتاب بدعاء مناسب لما في الكتاب موضوع له دعا به الشيخ ابن عطاء الله السكندري، قال:

اللهم إنا نسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

اللهم اجعلنا من المستسلمين إليك ومن القائمين بين يديك، وأخرجنا من التدبير معك أو عليك، واجعلنا من المفوضين إليك.

اللهم إنك قد كنت لنا من قبل أن نكون لأنفسنا فكن لنا بعد وجودنا كما كنت قبل وجودنا وألبسنا ملابس لطفك وأقبل علينا بحنانك وعطفك، وأخرج ظلمات التدبير من قلوبنا وأشرق نور التفويض في أسرارنا وأشهدنا حسن اختيارك لنا حتى يكون ما تقتضيه فينا وتختاره لنا أحب إلينا من مختارنا لأنفسنا.

اللهم لا تشغلنا بما ضمنت لنا عما أمرتنا ولا بشيء أنت طالبنا به عن شيء أنت طالبه منا، اللهم إنك دعوتنا إلى الانقياد إليك والدوام بين يديك وإنا عن ذلك عاجزون إلا أن تقدرنا، وضعفاء إلا أن تقوينا، ومن أين لنا أن نكون في شيء إلا إن كونتنا؟ وكيف لنا أن نصل لشيء إلا إن وصلتنا؟ وأنى

لنا أن نقوى على شيء إلا إن أعنتنا فوفقنا لما به أمرتنا وأعنا على الانكفاف عما عنه زجرتنا.

اللهم أدخلنا رياض التفويض وجنات التسليم ونعمنا بها وفيها واجعل أشرارنا معك لا مع نعيمها ولذتها، ولذذنا بك لا بزينتها وبهجتها.

اللهم أشرق علينا من أنوار الاستسلام إليك والإقبال عليك ما تبتهج به أسرارنا وتتكمل به أنوارنا.

اللهم إنك قد دبرت كل شيء قبل وجود كل شيء وقد علمنا أنه لن يكون إلا ما تريد وليس هذا العلم نافعًا لنا إلا أن تريد فَرِدنا بخيرك وارفع شأننا بفضلك واقصدنا بعنايتك وحفنا برعايتك واكسنا من ملابس أهل ولايتك وأدخلنا في وجود حمايتك إنك على كل شيء قدير.

اللهم إنا علمنا أن حكمك لا يُعاند وقضاءك لا يضادد وقد عجزنا عن رد ما قضيت ودفع ما أمضيت فنسألك لطفًا فيما قضيت وتأييدًا فيما أمضيت واجعلنا في ذلك ممن رعيت يا رب العالمين.

اللهم إنك قد قسمت لنا قسمة أنت موصلها لنا فوصلنا إليها بالهناء والسلامة من العناء مصانين فيها من الحجبة محفوفين فيها بأنوار الوصلة نشهدها منك فنكون لك من الشاكرين ونضيفها لك ولا نضيفها لأحد من العالمين.

اللهم إن الرزق بيدك رزق الدنيا ورزق الآخرة فارزقنا منهما ما علمت فيه المصلحة لنا والعود بالجدوى علينا.

اللهم اجعلنا من المختارين لك ولا تجعلنا من المختارين عليك ومن المفوضين لك لا من المعترضين عليك.

اللهم إنا إليك محتاجون فأعطنا، وعن الطاعة عاجزون فاقدرنا وهب لنا قدرة على طاعتك وعجزًا عن معصيتك واستسلامًا لربوبيتك وصبرًا على أحكام إلهيتك وعزًّا بالانتساب إليك وراحة في قلوبنا بالتوكل عليك، واجعلنا ممن دخل ميادين الرضا وكرع من تسنيم التسليم وجنى من ثمار المعارف وأُلبس خلع التخصيص وأُتحف تحفة القرب وفوتح من حضرة الحب دائمين على خدمتك محققين لمعرفتك متبعين لرسولك وارثين عنه وآخذين منه محققين به وقائمين بالنيابة عنه، واختم لنا منك بخير يا رب العالمين،

والله الموفق للصواب

وإليه المرجع والمآب

الفهرس

